

٤٩٧٥



١٠

مكتبي

الغراب النائم

وقصص أخرى

بقلم الدكتور: فتحى الصنفاوى

رسوم: عزيزة مختار



تصميم الغلاف
محمد أبو طالب

انتابت الغراب حالةً شديدةً من اليأس والقلق، وضّقت به حياته مما يلاقيه وعشيرته من كراهية المخلوقات الأخرى، خاصةً الطيور وبنى الإنسان، وقرّر البحث عن حلّ جذريٍّ لما يعاونه من المضايقات والمشاكل الحيّاتيّة والنفسية التي يعاؤون منها، لاسيّما وهم يبحثون دائماً عن الأشجار المرتفعة في الأماكن الخربة البعيدة عن العمران، يبثون فيها أعشاشهم ويتخذونها مستعمرةً خاصّةً ينزؤون بها بعيداً عن الآخرين، فالغرابان يعتبرون أنفسهم فصيلةً متميزةً من الطيور لها شرائعها ووسائلها وأساليبها في الحياة، ولهم طرقهم الخاصة في الحصول على معاشهم، ولا يجدون حرجاً في الحصول على احتياجاتهم بأيّة وسيلة مشروعةٍ أو غير مشروعةٍ، لذلك تبتعد عنهم بقيّة الطيور حتّى التّى تنتمى منها إليهم بصلة القرابة، والجميع يتحاشونهم وينفرون منهم وغالباً ما يرفضون التعامل معهم، وكذلك لا تُرحّب بهم وبجيرتهم المخلوقات الأخرى مهما حاولوا التودّد إليهم.

ويعجب الغراب كثيراً لتلك التصرّفات التي يعتبرها عدائيّة بالنسبة لهم، هذا على حدّ تفكيره، ولا يجد تفسيراً مقبولاً يعجبه يُبرّر به تصرّفات بقيّة الطيور حيالهم، ناهيك عما يُحسّ به البشر من بنى الإنسان تجاههم، ودائماً ما يسأل الغراب نفسه:

لماذا تعاملنى بقيّة الطيور ومُعظم البشر والحيوانات بهذا الجفاء...؟ ولماذا لا يُعجبهم شكلى ولونى الأسود وصوتى الخشن الأَجَش...؟، والله لا ذنب لى فى ذلك فقد خلّقنى ربّى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ لِحِكْمَةٍ وَأَسْبَابٍ لَا نَعْلَمُهَا...، وَإِنْ كُنْتُ أَعْتَقِدُ فى قَرَارَةِ نَفْسِي أَنِّى لَسْتُ ضَارّاً وَلَا مُؤْذِياً إِلَى هَذَا الْحَدِّ...، صَحِيحٌ قَدْ تَبَدُّوْا مِنِّى بَعْضُ التَّصَرُّفَاتِ الْغَرِيزِيَّةِ الَّتِي قَدْ تُضَايِقُ الْآخَرِينَ، وَلَكِنِّى فى الْحَقِيقَةِ أَحَاوِلُ قَدَرَ اسْتِطَاعَتِي أَنْ أَكُونَ طَيِّباً مُسَالِماً،

أَوْ عَلَى الْأَقْلَ أَتْظَاهِرُ بِذَلِكَ...، وَأَحَاوَلُ أَنْ أَبْتَعِدَ عَنْ بَقِيَةِ الْمَخْلُوقَاتِ كَالْمَنْبُودِ...،
أَمَّا إِذَا اشْتَدَّ بِيَ الْجُوعُ أَوْ بِيَ الْحَاجَةُ، سَاعَتَهَا أَجِدُ نَفْسِي مُسِيرًا مُرْغَمًا عَلَى
فِعْلِ بَعْضِ التَّصَرُّفَاتِ الَّتِي قَدْ تُسَيِّئُ لِلْآخَرِينَ، وَلَكِنْ مَا ذَنْبِي...!!.

«فَعَلًا...، أَعْتَرَفُ بِأَنِّي كَثِيرًا مَا أَضْطَرُّ إِلَى الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى أَعْشَاشِ الطُّيُورِ
الصَّغِيرَةِ أَوْ الضَّعِيفَةِ، وَإِلَى خَطْفِ صِغَارِ الطُّيُورِ الْآخَرَى مِنْ أَعْشَاشِهَا أَوْ أَقَاتَاتِ
عَلَى بَيْضِهَا، وَقَدْ أَنْزَلْتُ إِلَى الْأَرْضِ لَاحْتِطَافِ صِغَارِ الطُّيُورِ الْمُنْزَلِيَّةِ أَوْ سَرَقَةِ
غِذَائِهَا، وَسَلَبِ أَغْذِيَةِ الْفَلَاحِيِّينَ الْمَوْضُوعَةِ تَحْتَ الشَّجَرِ حِينَ يَبْتَعِدُونَ عَنْهَا
دَاخِلَ حُقُولِهِمْ، وَصَحِيحُ أَتْنِي.. وَأَتْنِي..».

وَقَدْ حَاوَلَ الْكَثِيرُونَ نَصْحِي وَلَفْتِ انْتِبَاهِي إِلَى أَنَّ الْحَصُولَ عَلَى ضَرُورِيَّاتِ
الْحَيَاةِ بِشَكْلِ مَشْرُوعٍ، وَأَنَّ الْحَبَّ وَالْوَتَامَ وَالتَّعَايِشَ فِي سَلَامٍ، هِيَ أَقْصَرُ الطَّرِيقِ
إِلَى حَيَاةٍ هَادِئَةٍ سَعِيدَةٍ بِلَا مَتَاعِبٍ أَوْ مُنْغَصَّاتٍ بَيْنَ بَقِيَّةِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ.

وَلَكِنِّي أَتَعَجَّبُ غَايَةَ الْعَجَبِ وَأَسْأَلُ نَفْسِي دَائِمًا.. لِمَاذَا يَزْعِجُهُمْ صَوْتِي حِينَ
أَنْعَقُ مَنَادِيًّا عَلَى زُمَلَائِي..؟ وَلِمَاذَا تَجْفَلُ الطُّيُورُ وَالْحَيَوَانَاتُ الصَّغِيرَةُ وَتَهْرَبُ
مِنْ قُرْبِي وَتَتَحَفَّزُ الطُّيُورُ الْكَبِيرَةُ نَوْعًا لِمَلَاقَاتِي وَمَهَاجَمَتِي وَطَرْدِي مِنَ الْمَكَانِ..؟
أَمَّا بَنَى الْبَشَرِ.. فَحَدَّثْتُ عَنْهُمْ بِلَا حَرَجٍ، فِيمُثْلِي مِثْلُ جَارَتِي - الْبُومَةِ لَا تَسْرَهُمْ
رُؤْيَتُنَا أَوْ سَمَاعُ أَصْوَاتِنَا، بَلْ يَتَشَاءُمُونَ وَيَتَضَاقِقُونَ مِنْ مُجَرَّدِ تَوَاجُدِنَا وَيَتَوَقَّعُونَ
دَائِمًا حَدُوثَ مَا لَا يُحْمَدُ عَقْبَاهُ، وَقَدْ يَنْهَالُونَ عَلَيْنَا بِالْحَجَارَةِ وَاللَّعْنَاتِ وَالشَّتَائِمِ
قَائِلِينَ عَادَةً:

(هَيَّا ارْحَلْ يَا قَبِيحَ الْوُجْهِ يَا أَسْوَدَ اللَّوْنِ، هَيَّا يَا عَيْنَ السُّوءِ يَا غُرَابَ

الْبَيْنِ)..

وَلَكِنِّي أَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ.. أَنَّ لَنَا نَحْنُ مَعَشَرَ الْغُرَبَانِ بَعْضَ الْفَضْلِ وَالْفَائِدَةِ
لِبَنِي الْإِنْسَانِ..، أَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَحَدَ أَجْدَادِنَا لِيُعَلِّمَ الْإِنْسَانَ وَهُوَ
أَقْلَ مِنْهُ شَأْنًا..، أَلَمْ يَنْبِشْ جَدُّنَا فِي الْأَرْضِ لِكَيْ يَدْفِنَ أَحَدَ إِخْوَتِهِ ثُمَّ يَغْطِيَهُ
بِالتُّرَابِ، فَيَقْلُدَهُ الْإِنْسَانُ الْمَدْعُو - قَائِيلَ حِينَ أَقْدَمَ عَلَى قَتْلِ أَخِيهِ الطَّيِّبِ -
هَابِيلَ لِيُؤَارِيَ جُثَّتَهُ !!!، أَلَا نُسَاعِدُ الْفَلَّاحَ فِي تَنْظِيفِ أَرْضِهِ وَتَخْلِيفِهَا مِنْ
الْحَشَرَاتِ وَالْبِرَقَاتِ وَالْدِّيدَانِ الضَّارَّةِ لِنَتَغَدَّى نَحْنُ عَلَيْهَا فِي الْمُقَابِلِ.

أَمَّا أَكْثَرُ مَا يَحْزُنُ فِي نَفْسِي وَيُؤْلِمُنِي، فَهُوَ ابْتِهَاجُهُمْ وَسُرُورُهُمْ لِرُؤْيَا جَارِنَا
الطَّيِّبِ - أَبُو قِرْدَانَ، فَهُوَ يَهْرَعُ مِثْلُنَا مَتَقَافِرًا خَلْفَ مَحَارِيثِهِمْ يَقْتُلِعُ الدِّيدَانَ مِنْ
أَرْضِهِمْ، وَلَكِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَهُوَ مَطْمَئِنٌّ فَرِحَ بِلَا خَوْفٍ، وَذَلِكَ عَلَى عَكْسِنَا
تَمَامًا.. لِمَاذَا.. وَلِمَاذَا..



دَارَتْ هَذِهِ الْهَوَاجِسُ وَالْمَشَاعِرُ الْحَزِينَةُ فِي نَفْسٍ وَعَقْلٍ الْغُرَابِ، وَانْتَابَتْهُ
حَالَةٌ مِنَ الْاِكْتِنَابِ وَالْيَأْسِ، وَفِي ظِلِّ تِلْكَ الْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ السَّيِّئَةِ، قَرَّرَ التَّفَكِيرَ
بِجِدِّيَّةٍ فِي إِيجَادِ الْحُلُولِ الْمُنَاسِبَةِ لِمَشَاكِلِهِمُ الْأَزَلِيَّةِ، لِذَا.. قَرَّرَ عَلَى الْفَوْرِ الْبَدْءَ
فِي الطَّوَافِ عَلَى كُلِّ تَجْمَعَاتِ الْغُرَبَانِ الْمُسْتَنْتَيْنِ فِي طُولِ الْمُنْطِقَةِ وَعَرْضِهَا،
وَإِيْفَادَ مَنْدُوبِينَ لَهُ مِنْ بَيْنِ أَصْدِقَائِهِ الْقَرِيبِينَ، يَحْمِلُونَ إِلَيْهِمْ رَسَائِلَ تَدْعُو
حُكَمَاءَهُمْ وَزُعَمَاءَ طَوَائِفِ الْغُرَبَانِ لِلِاجْتِمَاعِ فِي مَكَانٍ وَزَمَانٍ مُعَيَّنٍ مِنْ أَجْلِ
التَّبَاحُثِ وَالتَّشَاوُرِ فِي أَمْرِهِمْ، بَعْدَ مَا تَنَاقَصَ عَدْدُهُمْ كَثِيرًا بِشَكْلِ يَدْعُو لِلْقَلْقِ،
وَبَعْدَ أَنْ نَدَرَ الْحَصُولُ عَلَى الْغِذَاءِ بِسُهُولِهِ وَبِسَرِّ نَتِيجَةٍ لِزِيَادَةِ وَسَائِلِ التَّحَضُّرِ
وَالْعُمُرَانِ، وَكَثْرَةِ اسْتِخْدَامِ الْإِنْسَانِ لِلْمُبِيدَاتِ الْحَشَرِيَّةِ الَّتِي قَضَتْ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ
وغيرِ مُبَاشِرٍ عَلَى مِائَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ الْغُرَبَانِ وَالطُّيُورِ الْأُخْرَى، وَهُوَ مَا يُهْدَدُ
طَائِفَتُهُم بِالْاِنْقِرَاصِ.

وَفِي الْمِيْعَادِ الْمَحْدُدِ حَضَرَتْ وَفُودُ بَنِي غُرَابٍ مَتَسَلِّلَةً إِلَى مَكَانِ الْمُؤْتَمَرِ الَّذِي عَقِدَ فِي مَكَانٍ خَرِبٍ نَائٍ بَعِيدٍ جَدًّا عَنِ الْعُمَرَانِ، وَكَانَ التَّبَاحُثُ وَالتَّفَاوُضُ لِتَحْدِيدِ خُطَاهُمْ الْمَسْتَقْبَلِيَّةَ وَأَهْدَافِهِمُ الْمَصِيرِيَّةَ، تَمْهِيدًا لِمُسْتَدْعَاءِ جَمِيعِ الْغُرَبَانِ لِلْعَيْشِ مُجْتَمِعِينَ فِي أَمَانٍ - كَمَا يَتَصَوَّرُونَ - وَيَشْكُلُونَ قُوَّةً كَبِيرَةً تَخْدُمُ أَغْرَاضَهُمْ وَمَصَالِحَهُمُ التَّوَسُّعِيَّةَ وَالْاِسْتِيطَانِيَّةَ، وَالْاِسْتِيطِلَاءَ عَلَى أَشْجَارٍ وَخَيْرَاتِ الْمُنْطَقَةِ الَّتِي سَيَخْتَارُونَهَا، تَحْقِيقًا لِتَجْمَعِهِمْ فِي الْجَنَّةِ الْمَوْعُودَةِ الَّتِي يَحْلُمُونَ بِهَا، وَلِيُوَاجِهُوا بِشَكْلٍ مَبَاشِرٍ كَرَاهِيَةَ بَقِيَّةِ الْمَخْلُوقَاتِ لَهُمْ.

وَفِي كَلِمَتِهِ الْعَصْمَاءِ الَّتِي أَلْقَاهَا الْغُرَابُ الزَّعِيمُ، حَدَّدَ لَهُمْ أَهْدَافَ هَذَا اللَّقَاءِ، ثُمَّ تَدَارَسُوا الْمَوْقِفَ مِنْ جَمِيعِ زَوَايَاهُ، وَبَعْدَ مَنَاقَشَاتٍ وَمُدَاوَلَاتٍ طَوِيلَةٍ صَاحِبَةٌ قَرَّرُوا مَا يَلِي:

أولاً: الْبَحْثُ عَنْ مَكَانٍ يَصْلُحُ لِإِقَامَةِ تَجْمَعِهِمُ الْكَبِيرِ، بِحَيْثُ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِ الشُّرُوطُ الَّتِي تَتَّفِقُ مَعَ طَبِيعَتِهِمْ وَأَحْلَامِهِمْ، لِيَشْكُلُوا قُوَّةً ضَارِبَةً تَرْهَبُ مَنْ يُعَادِيهِمْ، وَلَوْ أَدَّى الْأَمْرُ إِلَى الْاِسْتِيطِلَاءِ عَلَى أَىِّ مَكَانٍ لِلْغَيْرِ، وَاسْتِخْدَامِ كُلِّ الْوَسَائِلِ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ ذَلِكَ، سَوَاءً بِالْقُوَّةِ أَوْ الْاِحْتِيَالِ أَوْ الْاِدْعَاءِ بِمَلِكِيَّتِهِمُ التَّارِيخِيَّةَ لِهَذَا الْمَكَانِ.. الخ، إِلَى جَانِبِ الْعَمَلِ عَلَى مَهَادَنَةِ وَتَمَلُّقِ بَعْضِ أَنْوَاعِ الطُّيُورِ الْكَبِيرَةِ الْجَارِحَةِ وَالْكَاسِرَةِ، حَتَّى يُسَاعِدُوهُمْ فِي إِرْهَابِ الْآخَرِينَ وَطَرْدِهِمْ وَاحْتِلَالِ أَشْجَارِهِمْ وَأَعْشَاشِهِمْ، وَلَوْ اضْطَرُّوا إِلَى إِهْدَائِهِمْ بَعْضَ مَا يَسْرِقُونَهُ وَيَسْلُبُونَهُ وَيَحْصُلُونُ عَلَيْهِ مِنْ غِذَاءٍ وَخِلَافِهِ مَهْمَا تَحَمَّلُوا فِي سَبِيلِ ذَلِكَ مِنَ الْجُوعِ وَالْمَتَاعِبِ.

ثانيًا: الْعَمَلُ عَلَى بَثِّ الْفِتَنِ وَالْعِدَاوَةِ وَإِثَارَةِ الْبَغْضَاءِ بَيْنَ بَقِيَّةِ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ، حَتَّى يَنْشَغِلُوا بِالْمَشَاحَنَاتِ وَالْاِخْتِلَافَاتِ الطَّائِفِيَّةِ وَالْعِرْقِيَّةِ وَالْقَبِيلِيَّةِ بَيْنَهُمْ، وَيَنْسُوا مَتَاعِبَهُمْ مَعَ الْغُرَبَانِ وَلَوْ مُوقَّتًا، عَمَلًا بِمَبْدَأٍ - فَرَقَ تَسُدْ - ،

وَأَن أَدَى الْأَمْرِ إِلَى إِسْتِخْدَامِ كُلِّ الطَّرِيقِ الْمَشْرُوعَةِ وَغَيْرِ الْمَشْرُوعَةِ كَالسَّرْقَةِ
وَالسَّلْبِ وَالثَّهْبِ وَالنَّصَبِ وَالْإِحْتِيَالِ وَنَشْرِ الْفَسَادِ، وَالْإِعْتِدَاءِ وَالْقَتْلِ إِنْ كَانَ
لَا مَفْرَ مِنْهُ.

ثَالِثًا: تَرْبِيَةٌ وَتَنْشِئَةٌ صِغَارِهِمْ مَعْتَقِدِينَ أَنَّهُمْ سَادَةُ الطَّيُورِ وَالْمَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهُمْ
الْقَادِرُونَ دُونَ غَيْرِهِمْ عَلَى اسْتِغْلَالِ أَخْطَاءِ الْآخَرِينَ، وَأَن كُلَّ مَا لِلْغَيْرِ مَبَاحٌ لَهُمْ
وَمُحَرَّمٌ عَلَى الْآخَرِينَ وَأَنَّ.. وَأَنَّ.. الخ.

وهكذا بدأ تنفيذ الخطّة الموضوعيّة بكلّ دِقَّةٍ، وَشَرَعُوا فِي الْبَحْثِ فَوْرًا عَنِ
الْمَكَانِ الْمَوْعُودِ الْمُنَاسِبِ، وَحَرَصُوا عَلَى أَنْ يَكُونَ فِي مَنَاطِقَةٍ مَتَّسِعَةٍ وَسَطٍ، تَقَعُ
عَلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ مِنَ الْمَنَاطِقِ الْغَنِيَّةِ بِالْحَدَائِقِ وَالْمَزَارِعِ وَالْوُدْيَانِ وَالْأَنْهَارِ
الْعَذْبَةِ وَالْبَحَارِ الَّتِي تَحْفِلُ بِخَيْرَاتِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ.

وحتى لَا يَلْفُتُوا الْأَنْظَارَ إِلَيْهِمْ، شَرَعُوا فِي الْهَجْرَةِ وَالْإِنْتِقَالِ إِلَى مَكَانِهِمُ الْمُخْتَارِ
فَرَادَى أَوْ فِي جَمَاعَاتٍ صَغِيرَةٍ، تَتَسَلَّلُ لِتُقِيمَ فِيهِ بَيْنَ بَقِيَّةِ الطَّيُورِ الَّتِي لَمْ تُلَقْ
لَهُمْ بِالْأَمْرِ فِي الْبَدَايَةِ، بَلْ رَحِبُوا بِهِمْ وَتَقَبَّلُوهُمْ بِسُرُورٍ، وَسَرَعَانَ مَا تَضَاعَفَتْ
أَعْدَادُهُمْ وَضَاقَتْ بِهِمْ أَعْشَاشُهُمْ، وَبَدَعُوا فِي الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى أَعْشَاشِ بَقِيَّةِ الطَّيُورِ
بِالْحِيلَةِ أَوْ بِالْقُوَّةِ أَوْ بِالْقَتْلِ إِذَا لَزِمَ الْأَمْرُ، وَبِذَلِكَ اضْطَرَّتْ مَعْظَمُ الطَّيُورِ مِنَ
الْعَصَافِيرِ وَالْبَلَابِلِ وَالْحَمَامِ الْبَرِّ وَالْيَمَامِ، وَجَمَاعَاتِ الْهَدُودِ وَأَبَى قِرْدَانَ
وغيرِهِمْ إِلَى تَرْكِ الْمَكَانِ خَوْفًا مِنْ بَطْشِهِمْ، بَعْدَ أَنْ حَاولُوا التَّفَاوُضَ مَعَهُمْ دُونَ
جُدْوَى لِقَاسَمِ الْمَكَانِ، وَخَلَقَ جَوْ مِنْ الْوُدِّ وَالتَّعَاشِ السَّلَامِيِّ بَيْنَ الْجَمِيعِ.

وهكذا تَحَوَّلَ الْمَكَانُ إِلَى مَسْتَعْمَرَةٍ أَوْ دَوْلَةٍ خَاصَّةٍ بِالْغُرَبَانِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَلَكِنْ
هَلْ سَتَصْبِرُ بَقِيَّةُ الطَّيُورِ عَلَى هَذَا الْإِحْتِلَالِ الْغَاشِمِ لِمَوْطِنِهِمُ الَّذِي تَرَبَّوْا وَعَاشَوْا
فِيهِ سَوِيًّا دُونَ مَشَاكِلٍ، فَالْجَمِيعُ هُنَا كَانُوا مُتَعَاوِنِينَ فِي حُبٍّ وَإِحَاءٍ وَتَعَاطُفٍ،
لَا يَعْتَدِي أَحَدٌ عَلَى جَارِهِ بَلْ يَحْتَرِمُ خُصُوصِيَّاتِهِ وَلَا يَتَدَخَّلُ فِي شَأْنِهِ،

وِيرْعُونَ جَمِيعَ الصِّغَارِ دُونَ تَفْرِقَةٍ أَوْ تَحْيِزٍ لِلْوَنِّ أَوْ لِشَكْلِ أَوْ لِنَوْعٍ أَوْ لِفَصِيلَةٍ مُعَيَّنَةٍ.

لِذَلِكَ كَانَ عَلَى جَمِيعِ الطُّيُورِ التَّكَاثُفُ وَالتَّوَحُّدُ فِي سَبِيلِ مُوَاجَهَةِ الْمُعْتَدِينَ، وَقَرَّرَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ وَفَصِيلَةٍ مِنْهُمْ إِبْغَادَ مَنْدُوبِينَ عَنْهُمْ لِلِاجْتِمَاعِ الْعَاجِلِ الَّذِي أَقِيمَ فِي مَكَانٍ أَمِينٍ، بَحْثُوا فِيهِ جَوَانِبَ الْمَشْكَلَةِ وَدَارَتْ بَيْنَهُمُ الْمَفَاوِضَاتُ وَالْمُنَاقَشَاتُ الْحَادَّةُ وَالصَّاحِبَةُ أَحْيَانًا، وَطَرَحَتْ فِيهِ الْاِقْتِرَاحَاتُ الْعَدِيدَةُ الْمُنْطِقِيَّةُ وَغَيْرُ الْمُنْطِقِيَّةِ أَحْيَانًا.

وَبَيْنَمَا كَانَتْ مَعْظَمُ الْآرَاءِ تَتَّفِقُ عَلَى أَنَّ مَا أَخِذَ بِالْقُوَّةِ لَا يُسْتَرَدُّ إِلَّا بِالْقُوَّةِ، كَانَ الْبَعْضُ يَرَى أَنَّهُمْ مَادَامُوا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مُوَاجَهَةِ شَامِلَةٍ بَيْنَهُمْ وَيُبْنِ الْغَرْبَانَ، وَيُبْنِ مَنْ يُؤَيِّدُونَهُمْ مِنَ الطُّيُورِ الْكَبِيرَةِ الْجَارِحَةِ وَالْكَاسِرَةِ الَّتِي ارْتَبَطَتْ مَعَهُمْ بِمَصَالِحٍ وَأَطْمَاعٍ مَشْتَرَكَةٍ، وَيَهْدِفُونَ جَمِيعًا إِلَى الْاِسْتِيْلَاءِ عَلَى مَقْدَرَاتِهِمْ وَثُرَوَاتِ الضُّعْفَاءِ وَتَسْخِيرِهِمْ لِحُدُومَتِهِمْ، فَإِنَّهُ لَا مَفَرَّ مِنْ مُهَادَنَتِهِمْ وَتَرْكِ الْمَكَانِ لَهُمْ مُوقَّتًا حَتَّى يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُوَحِّدُوا صُفُوفَهُمْ.

وَمَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ ثَبَتَ خَطَأُ هَذَا الرَّأْيِ بَعْدَ أَنْ بَدَأَتْ تَتَّضِحُ بِجَلَاءٍ خُطَطُ الْغَرْبَانِ التَّوَسُّعِيَّةِ، خَاصَّةً حِينَمَا بَدَءُوا فِي اسْتِجْلَابِ بَقِيَّةِ الْمَشْتَتِّينَ مِنْ جَنْسِهِمْ، وَفَتَحَ بَابَ الْهَجْرَةِ إِلَى جَنْبَتِهِمُ الْمَوْعُودَةِ، بَلْ وَاسْتَضَافُوا كَذَلِكَ مَجَامِيعَ كَبِيرَةٍ مِنَ الطُّيُورِ الْأُخْرَى مِثْلَ أُسْرَابِ الْحِدَاةِ وَالصُّقُورِ وَالْبُومِ وَغَيْرِهَا، وَاسْتَحْدَمَهُمْ كَأَدَوَاتٍ لِلْإِرْهَابِ وَالتَّعْدِي وَفَرَضَ الْأَمْرَ الْوَاقِعَ.

وَأَخِيرًا وَبَعْدَ جُهْدٍ كَبِيرٍ اتَّفَقَتِ الطُّيُورُ مُجْتَمِعَةً عَلَى تَنْظِيمِ صُفُوفِهِمْ، وَبَدَءُوا فِي تَنْفِيزِ خُطَّةِ الْمَقَاطَعَةِ الشَّامِلَةِ لِلْغَرْبَانِ وَحُلَفَائِهِمْ، فَلَا تَعَاوُنَ وَلَا تَفَاوُضَ لِإِقَامَةِ أَى نَوْعٍ مِنَ الْعِلَاقَاتِ مَعَهُمْ، بَلْ بَعَثُوا بِرِسَائِلٍ لَجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ لِمُسَانَدَتِهِمْ فِي مَوْقِفِهِمُ الْمَشْرُوعِ، دِفَاعًا عَنِ الْمَوْطِنِ وَمُسْتَقْبَلِ الصِّغَارِ، كَمَا تَعَاطَفَ



مَعَهُمْ يَأْتُوا الْبَشَرَ وَقَرَّرُوا عَدَمَ السَّمَاحِ لِبَنِي غُرَابٍ بِنَزُولِ حَقُولِهِمْ، وَالِاسْتَعْدَادِ لِمُوَاجَهَتِهِمْ وَطَرْدِهِمْ لَوْ حَاوَلُوا الْاقْتِرَابَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ تَمَّ فَتْحُ بَابِ التَّطَوُّعِ لِلانْضِمَامِ إِلَى كَتَائِبِ الْفِدَائِيِّينَ الْمُقَاتِلِينَ مِنَ الطُّيُورِ الْقَادِرَةِ، لِتَقُومَ هِيَ الْآخَرَى بِعَمَلِ غَارَاتٍ انتقاميةٍ عَلَى فُلُولِ الْغُرَبَانِ، وَتَحْطِيطِ أَعْشَاشِهِمْ وَقَطْعِ خُطُوطِ إِمدَادَاتِهِمْ وَطَرْدِهِمْ بِشَكْلِ تَدْرِيجِيٍّ أَيْ بِمَا يُشَبِّهُ حَرْبَ الْعِصَابَاتِ وَحَرْبَ الْاسْتِزَافِ.

وَإِذَا كَانَ الْغُرَبَانُ قَدْ اسْتَوْلُوا عَلَى الْمَكَانِ شَجَرَةً شَجَرَةً .. وَقِطْعَةً قِطْعَةً، فَلْتَنْزِعْ مِنْهُمْ كَذَلِكَ وَبِنَفْسِ الْأَسْلُوبِ، وَاتَّبَاعِ سِيَاسَةِ النَفْسِ الطَّوِيلِ بَعْدَ أَنْ تَتَكَلَّلَ الْجُهُودُ وَتَعَبًا كُلُّ الْإِمْكَانِيَّاتِ فِي سَبِيلِ النُّصْرِ وَالتَّحْرِيرِ عَلَى الْمُعْتَدِينَ، وَلِيَتَعَاوَنَ الْجَمِيعُ كِبَارًا وَصِغَارًا فِي سَبِيلِ هَذَا الْهَدَفِ الْأَسْمَى، فَالْكُلُّ يَجِبُ أَنْ يُشَارِكَ بِمَا يَسْتَطِيعُهُ، وَمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ الْقِتَالَ وَالْجِهَادَ فَعَلَيْهِ الْمُسَاهِمَةُ فِي مُسَانَدَةِ الْمَجْهُودِ الْحَرْبِيِّ، وَتَوْفِيرِ الْغِذَاءِ لِلْمُقَاتِلِينَ وَرِعَايَةِ ذَوِيهِمْ وَصِغَارِهِمْ أَثْنَاءَ غِيَابِهِمْ، كَمَا شَكَلَتْ مَجْمُوعَاتٌ مِنَ الطُّيُورِ الْقَوِيَّةِ وَالْكَبِيرَةِ، تَتَوَلَّى حِرَاسَةَ الْأَشْجَارِ وَالْأَعْشَاشِ وَمَهَاجِمَةً كُلِّ مَنْ يَحَاوِلُ الْاقْتِرَابَ مِنْهَا خَاصَّةً مِنَ الْغُرَبَانِ، بَعْدَ أَنْ انْخَرَطُوا جَمِيعًا فِي دَوَرَاتٍ تَدْرِيبِيَّةٍ عَلَى فَنُونِ الْقِتَالِ وَالِدِفَاعِ عَنِ النَّفْسِ.

ظَلَّتِ الطُّيُورُ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ الْعَصِيبَةِ تُكَافِحُ فِي سَبِيلِ مَوْطَنِهِمْ وَحَقِّهِمْ الْمَشْرُوعِ فِي الْحَيَاةِ الْأَمْنَةِ فَتَرَةً لَيْسَتْ بِالْقَصِيرَةِ، تَحْمِلُوا فِيهَا الْكَثِيرَ مِنَ الْعَنَتِ وَضِيقِ الْحَالِ، بِسَبَبِ حَالَةِ التَّعَبِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي اسْتَنْفَدَتْ مُعْظَمَ مَوَارِدِهِمْ وَجُهُودِهِمْ، كَمَا سَقَطَ مِنْ بَيْنِهِمُ الْكَثِيرُ مِنَ الْقَتْلَى الشُّهَدَاءِ وَالْمَصَابِينَ وَالْمَفْقُودِينَ، تَوَلَّى الْبَاقُونَ رِعَايَتَهُمْ وَرِعَايَةَ ذَوِيهِمْ وَصِغَارِهِمْ.

وَبَعْدَ صَبْرٍ طَوِيلٍ بَدَأَتْ تَلُوحُ بِشَائِرُ النُّصْرِ، فَقَدْ بَدَأَتْ أَعْدَادُ الْغُرَبَانِ تَتَنَاقَصُ كَثِيرًا بَعْدَ أَنْ أَصَابُوا وَقَتَلُوا مِنْهُمْ أَعْدَادًا كَبِيرَةً، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ وَجَدَ مُعْظَمُهُمْ

أَنَّهُ قَدْ غُرِّرَ بِهِمْ وَاسْتَدْرَجُوهُمْ لأَهْدَافٍ وَمَطَامِعٍ خَاصَّةٍ وَشَخْصِيَّةٍ، وَالْأَرْضُ صَارَتْ جَحِيمًا وَمَقَابِرَ لَهُمْ، وَلَمْ يَجِدُوا بِهَا جَنَّتَهُمُ الْمُوعُودَةَ، بَلْ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي حَالَةٍ اسْتِنْفَارٍ دَائِمٍ مُهْدَدُونَ بِالْمَوْتِ وَالطَّرْدِ فِي أَى لَحْظَةٍ، وَلَمْ يَحِسُوا بِطَعْمِ الرَّاحَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَكَانَتْ الْمَقَارَنَةُ وَاضِحَةً جَلِيَّةً بَيْنَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي مَقَارِهِمُ السَّابِقَةِ الَّتِي جَاءُوا مِنْهَا، وَبَيْنَ الْمَصَاعِبِ وَالْمَتَاعِبِ الْحَالِيَةِ.

لِذَلِكَ قَرَّرَ مُعْظَمُهُمُ الْفِرَارَ وَالْعُودَةَ إِلَى دِيَارِهِمْ، وَبَاتَتْ خُطَطُ زَعَمَاءِ الْغُرَبَانِ مُهْدَدَةً بِالْفَشْلِ الْكَامِلِ، وَتَدْرِيجِيًّا بَدَأَتْ فُلُولُهُمْ تَتْرَكَ الْمَنْطِقَةَ تِبَاعًا، وَرَجَعَ الْلَاجِئُونَ وَأَصْحَابُ الْمَكَانِ إِلَى أَعْشَاشِهِمْ وَدِيَارِهِمْ، يَعْمُرُونَهَا مِنْ جَدِيدٍ بَعْدَ أَنْ خَرَّبَهَا الْغَزَاةُ وَنَهَبَهَا الْغُرَبَانُ الْمُغْتَصِيُونَ، حَتَّى عَادَتِ الْمَنْطِقَةُ بِأَكْمَلِهَا نَضْرَةً يَانِعَةً بِأَشْجَارِهَا الْبَاسِقَةِ كَأَنَّهَا فَرِحَتْ بِعُودَةِ أَهْلِهَا، تُشَقِّقُ وَتُغَرَّدُ فَوْقَهَا الْعَصَافِيرُ وَتُغْنَى الْبَلَابِلُ، وَتَمَرِّحُ بَيْنَ أَغْصَانِهَا صِغَارُهُمْ فِي طُفُولَةٍ بَرِيئَةٍ لِأَهْيَةِ فِي أَمَانٍ مُقِيمٍ، وَانْكَشَفَتِ الْغُمَّةُ وَحَلَّ السَّلَامُ وَالْوِثَامُ وَالتَّعَايِشُ بَيْنَ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ.

أَمَّا بَقِيَّةُ الْغُرَبَانِ فَقَدْ رَجَعَ كُلُّ مِنْهُمْ إِلَى مُوْطِنِهِ، وَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ الْقَضَاءُ عَلَيْهِمْ وَإِفْنَائُهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، لَوْلَا أَنَّ بَقِيَّةَ الطُّيُورِ الْمُتَعَاوِنَةِ كَانَتْ حَرِيصَةً عَلَى عَدَمِ إِرَاقَةِ الدَّمَاءِ بِدُونِ دَاعٍ، وَتَرْكُوهُمْ يَرْحَلُونَ بِسَلَامٍ بَعْدَ أَنْ تَعَاهَدُوا أَلَّا يَعُودُوا إِلَى هُنَا ثَانِيَةً، وَعَفَوْا عَنْهُمْ وَالْعَفْوُ مِنْ شَيْمِ الْكِرَامِ.

أَمَّا صَاحِبُنَا الْغُرَابُ الزَّعِيمُ، وَهُوَ الَّذِي تَرَبَّى وَنَشَأَ وَعَاشَ سَنَوَاتٍ عُمْرَهُ بِحُلُومَهَا وَمُرَّهَا فِي هَذِهِ الْمَنْطِقَةِ الطَّيِّبَةِ، بَيْنَ جِيرَانِهِ مِنَ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالنَّاسِ الطَّيِّبِينَ، الَّذِينَ تَحَمَّلُوهُ بِبَدَأَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ الْمُسْتَمِرَّةِ، مُحَاوِلِينَ تَقْوِيمَهُ وَإِصْلَاحَهُ دُونَ جَدْوَى، فَقَدْ وَجَدَ نَفْسَهُ وَبَعْضَ رِفَاقِهِ وَحَدَهُمْ مِنْبُودِينَ مِنَ الْجَمِيعِ بِلَا سِنْدٍ أَوْ مُعِينٍ يَشَارِكُهُمْ حَيَاتَهُمْ وَأَمَانِيَهُمْ، وَاضْطُرُّوا إِلَى الْإِبْتِعَادِ عَنْ

بَقِيَّةُ الطُّيُورِ وَالْمَخْلُوقَاتِ ، خَاصَّةً بَعْدَ أَنْ رَفَضُوا أَنْ يُشَارِكُوهُمْ أَوْ يُجَاوِرُوا
أَعْشَاشَهُمْ فِي شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ ، كَمَا تَكْفُلُ الْفَلَاحُونَ بِطَرْدِهِمْ وَعَدَمِ السَّمَاحِ لَهُمْ
بِالنُّزُولِ إِلَى أَرْضِيهِمْ ، وَمُشَارَكَةِ أَبِي قَرْدَانٍ وَغَيْرِهِ فِي الْحُصُولِ عَلَى الْغِذَاءِ
وَتَنْظِيفِ الْأَرْضِ .

وَرَغْمَ أَنَّهُ حَاوَلَ التَّوَدُّدَ وَالْإِعْتِذَارَ لِلْجَمِيعِ عَمَّا بَدَرَ مِنْهُ وَمِنْ أَقْرَانِهِ ، وَعَرَضَ أَنْ
يَعِيشَ بَيْنَهُمْ فِي سَلَامٍ لَهُ وَعَلَيْهِ مَا لَهُمْ مِنْ حَقُوقٍ وَوَاجِبَاتٍ ، وَلَكِنَّهُمْ رَفَضُوا
بَشَدَةً لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ جَيِّدًا أَنَّهُ مِنْ فِئَةٍ لَا تَحْتَرِمُ الْمَعَاهِدَاتِ وَالْمَوَاقِيقَ ، وَدَائِمًا
تُحَرِّكُهُمْ غَرَائِزُهُمْ وَشَهَوَاتُهُمْ وَأَحْقَادُهُمْ الْأَزَلِيَّةَ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ .

مَرَّتِ الْأَيَّامُ ثَقِيلَةً مَرِيرَةً عَلَى الْغُرَابِ النَّائِثِ ، وَصَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا
رَحِبَتْ ، وَعَزَمَ عَلَى تَرْكِ الْمِنْطَقَةِ كُلِّهَا بَعْدَ أَنْ اِزْدَادَتْ حَيَاتُهُ سُوءًا ، يَكَادُ الْجُوعُ
وَتَقْصُ الْغِذَاءُ أَنْ يَفْتِكَ بِهِ ، وَلَمْ يَعُدْ يَجْرُؤُ عَلَى سَرَقَةٍ وَخَطْفِ الْغِذَاءِ ، فَالْعُيُونُ
مَفْتُوحَةٌ عَلَيْهِ تُرَاقِبُهُ بِلَا انْقِطَاعٍ ، وَيَخْشَى أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ مَا يُكَلِّفُهُ حَيَاتَهُ كُلِّهَا ،
وَلَمْ يَجِدْ مَفْرًا مِنَ التَّفْكِيرِ فِي تَغْيِيرِ مَجْرَى حَيَاتِهِ ، عَازِمًا عَلَى أَنْ يَفْعَلَ أَىَّ
شَيْءٍ يَرِيحُهُ مِنْ مَتَاعِبِهِ الشَّخْصِيَّةِ الْعَصَبِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ ، فَقَدْ قَرَّرَ الْهَرَبَ وَلَكِنْ إِلَى
أَيْنَ ؟ لَا يَدْرِي وَلَا يَعْلَمُ ، وَلَكِنْ .. أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ، وَعَسَى أَنْ يَجِدَ مَكَانًا آخَرَ
يُحَاوِلُ فِيهِ التَّاقُلُْمَ وَالتَّعَايِشَ بَيْنَ سُكَّانِهِ ، وَأَنْ يُكَافِحَ فِي سَبِيلِ كَبْحِ جِمَاحِ
غَرَائِزِهِ الْعُدْوَانِيَّةِ الَّتِي تَسَبَّبَتْ فِي جَمِيعِ مَشَاكِيلِهِ وَمَصَاعِبِهِ .

طَارَ الْغُرَابُ مُودَعًا مَرْتَعًا صَبَاحًا وَهُوَ فِي شِدَّةِ الْأَسَى وَالنَّدَمِ وَالتَّعَاسَةِ ، وَظَلَّ
يُرْفَرِفُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ فَتْرَةً طَوِيلَةً بِلَا هُدًى ، نَازِلًا حَوْلَهُ لَعْلَهُ يَجِدُ مَا يَشَدُّ
اِتِّبَاهَهُ أَوْ يُلْفِتُ نَظَرَهُ ، وَهَكَذَا مَرَّتِ سَاعَاتٌ عَدِيدَةٌ حَتَّى أَحَسَّ بِالتَّعَبِ وَالْجُوعِ
وَالْعَطَشِ الشَّدِيدَيْنِ ، وَلَمْ يَجِدْ مَفْرًا مِنَ النُّزُولِ إِلَى الْأَرْضِ لَعْلَهُ يَجِدُ مَا يَقْتَاتُ بِهِ
لِيَعَاودَ رَحْلَتَهُ إِلَى الْمَتَاهَةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُ مَدَاهَا .

نَزَلَ الْغُرَابُ وَهُوَ مُنْهَكَ الْقُوَى تَتَلَحَّقُ أَنْفَاسُهُ فِي ضَيْقٍ، وَأَخَذَ يَنْبَشُ فِي الْأَرْضِ بَاحِثًا عَمَّا يَصْلُحُ غِذَاءً لَهُ فَلَمْ يَجِدْ، عَاوَدَ الطَّيْرَانِ مَرَّةً أُخْرَى بِصُعُوبَةٍ حَتَّى بَلَغَ بِهِ التَّعَبَ وَالْإِرْهَاقَ مَبْلَغَهُ، وَأَحَسَّ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَرِّكَ جَنَاحَيْهِ، وَكَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْهَبُوطِ فَوْرًا قَبْلَ أَنْ يَسْقُطَ رَغْمًا عَنْهُ مِنْ ارْتِفَاعٍ كَبِيرٍ فَيَهْلِكُ.

هَبَطَ الْغُرَابُ نَاشِرًا جَنَاحَيْهِ بِلَا حَرَكَةٍ لِيَنْزِلَ تَدْرِيجِيًّا بِشَكْلِ اضْطِرَارِيٍّ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِيعِ التَّحَكُّمَ فِي تَوَازُنِهِ جَيِّدًا، فَارْتَطَمَ لِحُسْنِ حَظِّهِ بِأَرْضٍ مَلِيئَةٍ بِالْمَرْزُوعَاتِ، وَلَكِنَّهُ أَحَسَّ بِأَنَّ جَنَاحَهُ قَدْ كُسِرَ وَانْتَابَتْهُ آلامٌ شَدِيدَةٌ.. آه يَا لِلْمَصِيبَةِ.. مَاذَا يَفْعَلُ؟ إِنَّ الْجُوعَ يَكَادُ يَفْتِكُ بِهِ وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ الْحَرَكَةَ، وَلَا حِيلَةَ وَلَا مَلْجَأَ لَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ يَدْعُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ خَطَايَاهُ.

أَخَذَ الْغُرَابُ يَبْحَثُ حَوْلَهُ طَوِيلًا بِقَدْرِ مَا طَالَتْ أَظَافِرُهُ دُونَ جَدْوَى، حَتَّى عَزَّتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَرَقَدَ عَلَى الْأَرْضِ مُسْتَسْلِمًا مَكْدُودَ الْقُوَى، حَزِينًا بَائِسًا لَا يَقْدِرُ عَلَى الْحَرَكَةِ أَوْ الطَّيْرَانِ وَظَلَّ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ فِتْرَةً طَوِيلَةً حَتَّى قَرُبَ اللَّيْلُ أَنْ يُرْخِيَ أَسْتَارَهُ عَلَى الْمَكَانِ، وَفَجَاءَهُ.. أَحَسَّ بِأَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا مَا يَقْتَرِبُ مِنْهُ، وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ قَائِلَةً:

آه يَا رَبِّي مَاذَا لَوْ كَانَ هَذَا ذَنْبًا أَوْ ثَعْلَبًا أَوْ حَيَوَانًا مَتَوَحِّشًا يَجِدُنِي صَيْدًا ثَمِينًا لَهُ.

حَاوَلَ الْغُرَابُ التُّهُوُّصَ عَلَى أَرْجُلِهِ مُحَاوَلًا الطَّيْرَانِ، وَالْإِفْلَاتَ بِجُلْدِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَاسَاةِ فَلَمْ يَسْتَطِيعْ، حَاوَلَ الْقَفْزَ أَوْ الْجَرَى فَلَمْ يُفْلِحْ كَذَلِكَ، وَأَحَسَّ أَنَّ مَصِيرَهُ وَنَهَايَتَهُ الْمُحْتَوَمَةَ قَدْ دَنَتْ جَزَاءً مَا بَدَرَ مِنْهُ مِنْ سَيِّئَاتٍ.. وَسَلَّمْ أَمْرَهُ لِلَّهِ يَائِسًا.. اقْتَرَبَ الْآتِي نَحْوَهُ رُويْدًا.. رُويْدًا.. أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ، هَاهُوَ قَدْ أَصْبَحَ أَمَامَهُ تَمَامًا يَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَجِّبًا لَوْجُودِهِ فِي هَذَا الْمَكَانِ بِالذَّاتِ، وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ.. يَا.. إِنَّهُ كَلَبٌ

كَبِيرُ الْحَجْمِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَفَحِّصًا بِدَقَّةٍ.. كَتَمَ الْغُرَابُ أَنْفَاسَهُ وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ
وَاسْتَسْلَمَ لِمَصِيرِهِ، وَتَذَكَّرَ عَلَى الْفُورِ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ بِالطُّيُورِ الضَّعِيفَةِ أَوْ الْجَرِيحَةِ
وَالصَّغِيرَةِ، وَقَالَ لِنَفْسِهِ يُحَاسِبُهَا:

هَذَا يَوْمُ الْحِسَابِ.. وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَاللَّهُ يُمَهِّلُ وَلَا يُهْمِلُ
مَرَّتْ لِحُظَّةٍ مِنَ الصَّمْتِ حَاولَ فِيهَا أَنْ يَتَمَاسَكَ أَوْ أَنْ يَتَوَسَّلَ إِلَى الْكَلْبِ
وَيَسْتَدِرَّ عَطْفَهُ لِيَتَرَفَّقَ بِهِ، وَلَكِنَّ صَوْتَهُ خَرَجَ ضَعِيفًا مَتَحَشِّرًا كَأَنَّهُ أُنَاتُ
وَزَفَرَاتُ مُتَقَطَّعةٍ لَا تَصِلُ إِلَى سَامِعِهِ، وَرَاحَ بَعْدَهَا فِي غَيْبُوبَةٍ..

لَمْ يَدِرِ الْغُرَابُ كَمْ مَرَّةً عَلَيْهِ مِنَ الْوَقْتِ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، وَلَكِنَّهُ تَبَّهَ
لِلْحُظَّةِ لِيَجِدَ نَفْسَهُ مَحْمُولًا بِشَكْلِ مَا، وَمَا إِنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ حَتَّى أَصِيبَ بِالذُّعْرِ،
إِنَّ الْكَلْبَ يَحْمِلُهُ بِقَمِهِ وَبَيْنَ أَنْيَابِهِ وَيَسِيرُ بِهِ فِي اتِّجَاهِهِ مَا.. وَلَكِنْ إِلَى أَيْنَ..؟
لَا يَدْرِي.. هَلْ سَيَفْتَرِسُهُ..؟ هَلْ سَيَأْخُذُهُ طَعَامًا لِصِغَارِهِ؟.. اللَّهُ أَعْلَمُ!!، وَلَكِنَّهُ
فَكَرَّ لِبَرْهَةٍ، مَهَلًا مَهَلًا.. صَحِيحٌ أَنَّهُ مَحْمُولٌ بَيْنَ فَكِّي الْكَلْبِ الْكَبِيرِ، وَلَكِنَّهُ لَا
يُحِسُّ بِأَيِّ أَلَمٍ.. إِنَّ الْكَلْبَ يَحْمِلُهُ بِحُثُو شَدِيدٍ.. يَا سُبْحَانَ اللَّهِ تَفَاعَلَ الْغُرَابُ
كَثِيرًا ثُمَّ قَالَ لِنَفْسِهِ:

رُبُّنَا يُكْمِلُهَا بِالسَّتْرِ، وَيُبْعَثُ لِي بِأَوْلَادِ الْحَلَالِ، كَمَا يَقُولُ الْبَشَرُ
سَارَ الْكَلْبُ إِلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ حَامِلًا الْغُرَابَ الْمُسْتَسْلِمَ بَيْنَ فَكِّيهِ مُتَجَهًّا
نَحْوَ مَنْزِلِ قَرِيبٍ، يَبْدُو أَنَّهُ مِنَ الْكِلَابِ الْمَدْرَبَةِ عَلَى الصَّيْدِ، وَرُبَّمَا يَحْمِلُهُ
لِيُسَلِّمَهُ لِسَيِّدِهِ.. رُبَّمَا، وَلَكِنْ.. لَقَدْ غَيَّرَ الْكَلْبُ اتِّجَاهَهُ فَجَأَةً، وَسَارَ نَحْوَ حَظِيرَةِ
الطُّيُورِ وَالِدَّوَاجِنِ الْخَاصَّةِ بِالْمُرْزَعَةِ.. خَفَقَ قَلْبُ الْغُرَابِ بِشِدَّةٍ وَانْتَابَتْهُ الْهَوَاجِسُ
مَرَّةً أُخْرَى، وَخَافَ أَنْ يَحْمِلَهُ الْكَلْبُ إِلَى مَكَانٍ غَيْرِ آمِنٍ، وَلَكِنَّ الْكَلْبَ دَلَفَ إِلَى
الْحَظِيرَةِ وَاتَّجَهَ مُبَاشَرَةً إِلَى الْمَكَانِ الْمُخَصَّصِ لِلدَّوَاجِنِ لِيَضَعَهُ بَيْنَ الدَّجَاجِ وَالْأَوْزِ
وَالْبَطِّ وَالْدِّيَكَةِ، دُونَ أَنْ يُلْقَى بِالًا لِنَدَاءِ أَحَدِ الْعَمَالِ عَلَيْهِ:

مَشْمِش.. يَا مَشْمِش.. إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ؟ مَاذَا مَعَكَ؟، هَيَّا تَعَالِ إِلَى هُنَا حَالًا،
فَلَيْسَ مَسْمُوحٌ لَكَ بِالتَّوَاجُدِ بَيْنَ الدَّوَّاجِنِ.. أَخْرَجَ وَدَعَا فِي حَالِهَا وَلَا تُزْعِجْهَا
لَمْ يَأْبِهِ بِهِ الْكَلْبُ وَسَارَ بِالْغُرَابِ إِلَى زَاوِيَةٍ تَضُمُّ مَسَاقِي الْمِيَاهِ وَالْأَغْذِيَةِ
الْمَخْصَصَةِ لِلطُّيُورِ، وَوَضَعَ الْغُرَابَ بَيْنَهَا عَلَى الْأَرْضِ بَرْقُوقٍ فِي مَكَانٍ مُنْزَوٍ بَيْنَ
الْأَوَانِي حَتَّى لَا يَرَاهُ أَحَدٌ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ مُتَأَثِّرًا بِحَالَتِهِ الَّتِي يَرْتَبِئُ لَهَا، وَتَرَكَه
دَاعِيًا لَهُ بِالصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ.

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ.. وَهَذِهِ اللَّحْظَةِ بِالذَّاتِ، أَحْسَسَ الْغُرَابُ بِأَنْ حَيَاتَهُ كُلَّهَا
لَا تَسَاوِي هَذِهِ النَّظَرَاتِ وَالْمَشَاعِرَ الرَّقِيقَةَ، وَأَنَّ مَا فَعَلَهُ بِهِ الْكَلْبُ الْوَفَى الصَّدِيقُ،
يَعْجِزُ اللِّسَانُ وَالْبَيَانُ عَنْ وَصْفِهِ، وَأَنَّهُ بِكُلِّ أَسْفٍ، لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ بِأَنَّ هُنَاكَ
مَخْلُوقَاتٍ طَبِيبَةٍ مُتَسَامِحَةٍ وَدُودَةٍ إِلَى هَذَا الْحَدِّ، وَالتَّفَتَّ إِلَى الْكَلْبِ وَنَظَرَ إِلَيْهِ
بِخَجَلٍ نَظْرَةً شَاكِرَةً لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَحَوَّلَ مَعَانِيهَا إِلَى كَلِمَاتٍ، وَشَعَرَ بِكُلِّ الْخِزْيِ
لأنَّهُ كَانَ خَسِيسًا وَدَنِيئًا مَعَ الْآخَرِينَ إِلَى أْبْعَدِ دَرَجَةٍ، وَمَرَّتْ أَمَامَ عَيْنَيْهِ أَفْعَالُهُ
وَمَا اقْتَرَفَتْهُ جَوَارِحُهُ وَمَخَالِبُهُ مِنْ سَيِّئَاتٍ لَا حَصْرَ لَهَا، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَحْبِسَ
أَنَاتِهِ وَدُمُوعَهُ الَّتِي انْهَمَرَتْ بِشِدَّةٍ.. إِنَّهَا دُمُوعُ النَّدَمِ الصَّادِقِ، وَلَمْ يَجِدْ إِلَّا أَنْ
يُتِمِّتَ بِصَوْتِهِ الضَّعِيفِ الْمَكْدُودِ بِكَلِمَاتِ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ لِلَّهِ.

وَمَا أَنْ بَارَحَ الْكَلْبُ الْمَكَانَ مَطْمَئِنًّا عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ فِي أَمَانٍ وَسَيَسْتَرِدُّ
عَافِيَتَهُ، حَتَّى هُرَعَتِ الدِّيَكَةُ وَالِدَّجَاجَاتُ وَالْأَوْزُ وَالْبَطُّ وَصِغَارُهُمُ لِلتَّرْحِيبِ بِهِ،
هَذِهِ تُشَجِّعُهُ وَهَذِهِ تُوَاسِيهِ وَتُطْمَئِنُّهُ أَنَّهُ سَيَكُونُ بَيْنَهُمْ فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ، هَذِهِ
تُؤَانِسُهُ وَتُرْفُهُ عَنْهُ، وَأَسْرَعَتْ تِلْكَ تَلْتَقِطُ بِمِنْقَارِهَا بَعْضًا مِنَ الْأَكْلِ الشَّهِيِّ الْمَغْدَى
الَّذِي أَعَدَّتْهُ صَاحِبَةُ الدَّارِ وَتَضَعُهُ أَمَامَهُ، وَتَجَرَّاتُ أَوْزَةٍ كَبِيرَةٍ وَأَخَذَتْ تَلْتَقِطُ
الْغِدَاءَ بِمِنْقَارِهَا لِتَلْقَى بِهِ فِي جَوْفِهِ.. يَا لَسَعَادَتِهِ، إِنْ مَشَاعِرِهِ الْآنَ لَا تُوصَفُ،
هَكَذَا تَكُونُ الْمَوَدَّةُ وَالتَّعَاطُفُ وَالتَّرَاحُمُ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ كَافَّةً، وَهُوَ الَّذِي عَاشَ
مَكْرُوهًا مُنْبُوذًا بَيْنَ بَقِيَّةِ أَقْرَانِهِ وَأَقْرَبَائِهِ مِنَ الطُّيُورِ.



وَلَمْ تَمُرْ سَاعَاتٍ حَتَّى تَعَاثَى الْغُرَابَ وَاسْتَرَدَّ بَعْضُ قُوَّتِهِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ أَكَلَ
وَشَرَبَ حَتَّى اكْتَفَى ، ثُمَّ انْزَوَى خَلْفَ أَحَدِ الْأَوَانِي الْكَبِيرَةِ بِجِوَارِ الْحَائِطِ ، لِيَنَامَ
مُسْتَرِيحًا هَادِي الْبَالِ حَتَّى أَشْرَقَتْ شَمْسُ الْيَوْمِ التَّالِي وَجَاءَ يَوْمٌ جَدِيدٌ ، وَمَرَّتْ
أَيَّامٌ .. وَأَيَّامٌ أُخْرَى ، تَحْمِلُ لَهُ الْأَمَلَ وَالْدَفْءَ وَالْحَيَاةَ السَّعِيدَةَ بَيْنَ أَصْدِقَائِهِ مِنْ
الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ الطَّيِّبَةِ ، تَبَادَلُوا فِيهَا جَمِيعًا عِنَايَةً بِهِ حَتَّى بَدَأَتْ جَرُوحُهُ
وَكُسُورُهُ تَلْتئمُ ، وَبَدَأَ يَسِيرُ وَيَخْطُو بَيْنَهُمْ كَأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، تَتَقَافَزُ وَتَتَصَايَحُ
حَوْلَهُ أَفْرَاحُهُمْ وَصِغَارُهُمْ دُونَ وَجَلٍ أَوْ خَوْفٍ ، وَالْكَلْبُ يَزُورُهُ لِيَطْمِئِنَّ عَلَيْهِ مِنْ
حِينٍ إِلَى حِينٍ وَيَرْقُبُهُ بِسُرُورٍ وَرِضَاً .

وَذَاتَ صَبَاحٍ جَاءَتْ صَاحِبَةُ الْبَيْتِ كَعَادَتِهَا لَتُعِدَّ لِلدَّوَاجِنِ لَوَازِمَهَا مِنَ الْغِدَاءِ
وَالْمَاءِ وَخِلَافِهِ وَبَيْنَمَا كَانَتْ تُنْظِفُ أَرْكَانَ الْمَكَانِ .. فَزَعَتْ عِنْدَمَا وَجَدَتْ هُنَاكَ
غُرَابًا جَالِسًا مُسْتَرِيحًا بَيْنَ الْكَتَاكِيَتِ وَالْأَفْرَاحِ الصَّغِيرَةِ وَهِيَ تَلْهُوُ حَوْلَهُ ،
ارْتَاعَتِ السَّيِّدَةُ وَهِيَ تَحْسَبُ أَنَّ الْغُرَابَ يُضْمِرُ لَهُمْ سُوءًا ، فَقَدْ سَبَقَتْهُ شَهْرَتُهُ
الدَّائِبَةُ فِي اخْتِطَافِ صِغَارِ الدَّوَاجِنِ ، وَأَسْرَعَتْ تَتَنَاوَلُ أَقْرَبَ عَصَا غَلِيظَةٍ وَهِيَ
تَصِيحُ ، وَاتَّجَهَتْ نَاحِيَتَهُ لَتَضْرِبَهُ وَتُحْطِمَ رَأْسَهُ ، وَلَكِنْ .. يَا لِلْعَجَبِ .. إِنَّ الصَّغَارَ
يَلْتَفُونَ حَوْلَهُ وَيَتَقَافِزُونَ فَوْقَ ظَهْرِهِ وَرَأْسِهِ دُونَ خَوْفٍ ، كَأَنَّمَا جَعَلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ
سَاتِرًا لِحِمَايَتِهِ ، بَيْنَمَا أَسْرَعَتْ بَقِيَّةُ الدَّوَاجِنِ صَائِحَةً تَدُودُ عَنْهُ .

وَقَفَّتِ الْمَرْأَةُ مُنْبهَرَةً تُنَادِي عَلَى زَوْجِهَا وَأَوْلَادِهَا لِرُؤْيَا هَذَا الْمَشْهَدِ الْغَرِيبِ
حَقًّا ، وَأَحْسَنَ الْجَمِيعِ بِمَدَى التَّأَلُّفِ وَالتَّكَاتُفِ بَيْنَ طُيُورِهِمْ وَهَذَا الْغُرَابِ الْغَرِيبِ
التَّائِيهِ ، وَأَسْرَعَ الْكَلْبُ بِدَوْرِهِ يَتَمَسَّحُ بِهَا كَأَنَّمَا يُهْدِي مِنْ رَوْعِهَا وَحَيْرَتِهَا ،
وَذَهَبَ إِلَى حَيْثُ الْغُرَابُ رَاقِدًا مَنْزُوعًا مَدْعُورًا ، ثُمَّ حَمَلَهُ بَيْنَ فَكَيْهِ بِرَقَةٍ وَهُوَ
مُسْتَسْلِمٌ لَهُ تَمَامًا ، وَوَضَعَهُ بَيْنَ أَرْجُلِ السَّيِّدَةِ الَّتِي لَمْ تَتَمَالِكْ مَشَاعِرَهَا وَدُمُوعَهَا
فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ ، ثُمَّ مَالَتْ نَحْوَ الْغُرَابِ وَأَمْسَكَتْ بِهِ بِحَنُوٍّ ، وَهُوَ يَنْظُرُ لَهَا بَعِينٍ

حَزِينَةٍ حَجُولَةٍ مُسْتَسْلِمَةٍ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ حِيَالَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ تَأْخُذَهُ وَتَضَعَهُ فِي مَكَانِهِ حَيْثُ وَجَدْتَهُ بِهِدْوٍ وَاطْمِئْنَانٍ.

بَعْدَ عِدَّةِ أَسَابِيعَ، شَفِيَ الْغُرَابُ تَمَامًا وَبَدَأَ يُعَاوِدُ الطَّيْرَانَ حَوْلَ الْمَكَانِ، ثُمَّ يَرْجِعُ لِمَدَاعِبَةِ الصَّغَارِ وَالْكِبَارِ مِنَ الطُّيُورِ، وَالسَّيْرِ مُتَمَهَلًا مُتَانِيًا مُتَبَاهِيًا بَيْنَ أَصْدِقَائِهِ وَأَهْلِهِ الْجُدُدِ، يُسَاعِدُهُمْ وَيَهْبُؤُ لِنَجْدَتِهِمْ مِنْ أَىِّ مُعْتَدٍ، بَلْ جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ حَارِسًا خَاصًّا مَقِيمًا لَهُمْ، مِمَّا جَعَلَ أَصْحَابَ الْبَيْتِ يُعْدُونَ لَهُ مَكَانًا وَعَشًا فِي أَحَدِ أَبْرَاجِ الْحِمَامِ الْعَالِيَةِ الْمُطَّلَةِ عَلَى الْمَكَانِ، لِيَعِيشَ بَيْنَهُمْ سَعِيدًا مُرْتَاحَ الْبَالِ، وَفَاضَتْ أَيَّامُهُ بِالْبَهْجَةِ وَالْحُبِّ وَالْوَنَامِ وَالسَّلَامِ، وَتَنَاقَلَتِ الطُّيُورُ بِأَنْوَاعِهَا تِلْكَ الْحِكَايَةَ السَّارَةَ عَنِ الْغُرَابِ الَّذِي وَجَدَ نَفْسَهُ وَعَادَ مِنْ مَتَاهَتِهِ أَخِيرًا.

وَلَكِنْ، ذَاتَ صَبَاحٍ قَامَ الْغُرَابُ بِحَوْلَتِهِ التَّفَقُّدِيَّةِ الرُّوتِينِيَّةِ الْيَوْمِيَّةِ لِيُطَمِّنَنَّ عَلَى الْمَكَانِ وَالْجَوَارِ، وَلَكِنَّهُ فَرَعَ عِنْدَمَا لَمَحَ بَعْضَ الْغُرَبَانِ الْغُرَبَاءِ يَحُومُونَ مِنْ بَعِيدٍ.. سَتَرَكَ يَا رَبِّ.. لَقَدْ حَلَّتِ الْمَتَاعِبُ ثَانِيَةً، وَلَكِنْ الْغُرَبَانِ لَمْ يُضِيعُوا الْوَقْتَ، وَأَرْسَلُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ مُتَسَلِّلًا يَدْعُوْنَهُ لِلِقَائِهِمْ.. رَفَضَ الْغُرَابُ فِي الْبِدَايَةِ، ثُمَّ قَبْلَ أَنْ يَلْقَاهُمْ بَعْدَ إِلْحَاحِهِمْ عَلَى مَضَضٍ وَهُوَ لَا يَنْتَظِرُ مِنْهُمْ خَيْرًا، بَلْ قَالَ فِي نَفْسِهِ:

«يَجِبُ أَنْ أَرَى مَاذَا يُرِيدُونَ حَتَّى أَسْتَطِيعَ أَنْ أَتَقَى شَرَّهُمْ وَأَفْسِدَ خُطَطَهُمْ»
وَطَارَ إِلَيْهِمْ حَيْثُ يَنْزَوُونَ عَلَى شَجَرَةٍ بَعِيدَةٍ وَهُوَ مُتَوَجِّسٌ مِنْهُمْ خِيفَةً وَمُسْتَعِدٌّ لِكُلِّ الْإِحْتِمَالَاتِ، وَحِينَ وَصَلَ إِلَيْهِمْ تَأَرَّوْا فِي وَجْهِهِ بِشِدَّةٍ وَاتَّهَمُوهُ بِالْخِيَانَةِ، وَهَدَّدُوهُ إِنْ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى عَشِيرَتِهِمْ وَيَعِيشَ بَيْنَهُمْ كَمَا كَانَ وَيَحْدُوا حَذْوَهُمْ، فَسَيُضْطَرُّونَ إِلَى الْإِحَاقِ الْأَذَى بِهِ نَتِيجَةً لِكُفْرِهِ بِشَرَائِعِهِمْ وَنَوَامِيسِهِمْ وَعَدَمِ اتِّبَاعِ تَعَالِيمِ حُكَمَائِهِمْ.

عَبثًا حَاوَلَ غَرَابِنَا أَنْ يَشْرَحَ لَهُمْ مَدَى السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ الَّذِي يَتَمَتَّعُ بِهِ، وَأَنَّهُ
وَجَدَ الْجَنَّةَ الْمَوْعُودَةَ الَّتِي لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُحَقِّقُوهَا لَهُ أَوْ لغيرِهِ مِنَ الْمَخْدُوعِينَ،
وَأَنَّهُ الْآنَ بَيْنَ طَائِفَةٍ مِنَ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْبَشَرِ، يَجْمَعُهُمُ الْوِثَامُ وَالتَّأَلُّفُ
وَالْتَّكَاتُفُ الْجَمَاعِيَّ وَالْتَّعَايُشُ السَّلْمِيُّ، وَيَسُودُهُمْ مَبْدَأُ وَاحِدٌ يَقُومُ عَلَى حُبِّ
الْخَيْرِ لِلْجَمِيعِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الْكَبِيرِ أَوِ الصَّغِيرِ، أَوْ الْقَوَى وَالضَّعِيفِ،
وَلَا بَيْنَ الْحَاكِمِ وَالْمَحْكُومِ، فَالْكُلُّ سَوَاسِيَّةٌ فِي الْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ، وَإِنَّمَا أَكْرَمُهُمْ
عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاهُمْ، وَلَوْلَا أَنَّهُ خُلِقَ هَكَذَا غَرَابًا، لَتَبَرَّأَ مِنْ نَفْسِهِ وَصُورَتِهِ حَتَّى لَا
يَكُونَ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ وَلَكِنَّهُ لِلْأَسَفِ لَنْ يَسْتَطِيعَ، إِنَّمَا سَيُسَلِّمُ أَمْرَهُ لِلَّهِ وَيُحَاوَلُ
أَنْ يَعْيشَ نَظِيفًا طَيِّبًا طَاهِرًا مِنْ كُلِّ الشُّرُورِ، وَلَا يَعْمَلُ إِلَّا مَا فِيهِ صَلَاحُهُ وَصَلَاحُ
الْآخَرِينَ.

غَادَرَ الْغُرَابُ الْمَكَانَ بَعْدَ أَنْ هَدَّدَهُمْ بِاسْتِدْعَاءِ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ الْجَدِّ وَجَمِيعِ
الطُّيُورِ لِيَطْرُدَهُمْ أَوْ يَفْتِكُوا بِهِمْ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ مَغَادَرَةَ الْمَنْطِقَةِ فَوْرًا وَعَدَمَ الْعُودَةَ
إِلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى مَهْمَا كَانَتْ الْأَسْبَابُ، وَأَنَّهُ يُفَضِّلُ أَنْ لَا يَرَى وُجُوهَهُمُ الْعَكْرَةَ
ثَانِيَةً، وَيَتَمَنَّى أَنْ يَعْيشَ بَيْنَ أَهْلِهِ هُنَا فِي سَلَامٍ وَأَمَانٍ إِلَى مَا شَاءَ الرَّحْمَنُ.



أعلام الحصان المتحرد

أعزائي.. هذه حكايتي، أقصها عليكم كما حدثت تمامًا لعلكم ترون فيها ما ينفعكم: أنا حصان عربي أصيل، أسموني - شهاب - لأن لوني أبيض ناصع البياض.. منذ مولدي أصبحت الفرس المدلل بين أقراني من صغار الخيل في الإسكندرية الكبير الذي يمتلكه أحد الأثرياء، ويقع على أحد مشارف القاهرة الصحراوية.

تربيت هنا معززًا مكرمًا يهتمون جدًا بخدمتي وشؤوني الصحية، لذا خصصوا لي سائسًا معينًا لرعايتي، وسرعان ما ترعرعت وأصبحت فرسًا شابًا يانعا يتهافت الأثرياء ومحبو الخيول على شرائي، ولكن صاحبي الطيب يحبني بشدة، ويصر على الاحتفاظ والتمسك بي لنفسه وأولاده رغم ما عرض عليه من مبالغ مالية كبيرة جدًا، في حين بيع العديد من أقراني للركوب أو لجر العربات والحناطير أو كخيول للسباق.. كل حسب حالته وكفاءته البدنية وحظه من الحياة، أما أنا فأصبحت الحصان المخصص لتسليية وتزهة الأطفال وأولاد صاحبي فقط، لذا لم يحاولوا تدريبي أو إعدادي بدنيًا كحصان يافع يمكن أن أصبح شيئًا أكثر نفعًا، وهو ما أساءني كثيرًا وسبب لي الضيق والضجر، فأنا بطبعي طموح متطلع إلى ما هو أفضل دائمًا.

هكذا عشت حياة مترفة ولكنها مملّة باهتة باردة، بالطبع كان لابد من أن أكون هاديًا متمهلاً بطيء الحركة حرصًا على سلامة الأطفال، لذا أطلقوا على الحصان الكسول الطيب الهادي...!!! ولكني والله لست كذلك.. ففي داخلي قلب يشتعل نشاطًا وحيوية وقوة، أهنو إلى الحرية والانطلاق وإثبات الذات، ولو تركوني لظلت أجرى وأفيز وأسهل بأعلى صوتي، لا أتوقف حتى يعرف

الجميع أنى هنا مُقيد دُونَ تدريب أو تعلِيم أو تَهْذِيب.. سَجِينٌ فى أحد حظائر الإسْطَبَلِ الكَبِيرِ، أنتَظِرُ سَائِسِ كُلِّ صَبَاحٍ لِيَأْخُذْنِي لِمْهْمَتِي الرُوتِينِيَّةِ المَملَةِ، وَاضِعًا الأَطْفَالَ عَلَى السَّرَجِ الفَاخِرِ المُخَصَّصِ لِي، ثُمَّ يَجْرُنِي جَرًّا وَهُوَ مُمَسِّكٌ بِاللِجَامِ مُتَمَشِّيًا بِهِمْ خِلَالَ مَمَرَاتٍ وَطُرُقَاتِ الحَدِيقَةِ المُلْحَقَةِ بِالإِسْطَبَلِ، وَبَعْدَ فِتْرَةٍ لَيْسَتْ طَوِيلَةً.. يُعِيدُنِي ثَانِيَةً إِلَى سِجْنِي وَقَفْصِي الذَّهَبِيِّ الَّذِي كَرِهْتُهُ وَضِيقَتْ بِهِ كَثِيرًا، مُحْرُومًا مِمَّا تَتَمَتَّعُ بِهِ الخِيُولُ الأُخْرَى، لِأَعُودَ وَحِيدًا يَأْسًا إِلَى اليَوْمِ التَّالِي وَهَكَذَا..

يَا.. لَكُمْ تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ حَصَانًا بَرِيًّا، أَرْتَعُ وَأَمْرَحُ فِي أَرْضِ اللَّهِ الوَاسِعَةِ بِلا قِيُودٍ أَقُومُ عَلَى رَعَايَةِ شُئُونِي وَحِمَايَةِ نَفْسِي، وَلَكُمْ تَمَنَّيْتُ أَنْ تَكُونَ لِي حَيَاتِي الخَاصَّةَ وَمَغَامِرَاتِي، أَرْجُو أَلَّا تَعْتَبِرُونِي مَجْنُونًا أَوْ مَخْبُولًا.. فَقَدْ عَرَفَ التَّارِيخُ خِيُولًا عَدِيدَةً كَانَتْ عَامِلًا مُسَاعِدًا فِي تَغْيِيرِ بَعْضِ أَحْدَاثِ التَّارِيخِ، وَلَعَبْتُ دَوْرًا هَامًّا فِي حَيَاةِ الأَفْرَادِ، بَلِ الأُمَمِ وَالشُّعُوبِ!!

هَكَذَا بَدَأَتْ حِكَايَتِي وَتَجَمَّعَتْ خِيُوطُ أَحْدَاثِهَا، لَا سِيَّمَا عِنْدَمَا فَكَّرْتُ كَثِيرًا فِي وَاقِعِ حَيَاتِي الرَّتِيبَةِ، وَهَفَّتْ نَفْسِي لِلْبَحْثِ عَنْ وَسِيلَةٍ لِتَغْيِيرِ مَجْرَاهَا، وَكَانَ لِأَبْدٍ مِنْ مُحَاوَلَةِ الهُرُوبِ مِنْ هَذَا المَعْتَقَلِ إِلَى أَرْضِ اللَّهِ الوَاسِعَةِ الرَّحْبَةِ، أَرْتَعُ فِي مَزَارِعِهَا وَوُدْيَانِهَا وَصَحْرَائِهَا كَمَا أَشَاءُ، بَلِ تَمَنَّيْتُ مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ.. وَحَلَمْتُ بِالْعُودَةِ إِلَى المَاضِي البَعِيدِ أَوْ القَرِيبِ، عِنْدَمَا كَانَتْ الخِيُولُ تُمَثِّلُ شَيْئًا هَامًّا وَضَرْورِيًّا فِي الحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ لِلبَشَرِ.

ذَهَبْتُ أَحْلَامِي بَعِيدًا فِي اللَّامَعْقُولِ.. مَاذَا لَوْ رَجَعَ بِي الزَّمَنُ وَعَاصَرْتُ الفِتْرَةَ الَّتِي عَاشَ فِيهَا أَجْدَادِي مِنَ الخِيُولِ، وَكَانُوا حِينَئِذٍ يُمَثِّلُونَ الوَسِيلَةَ الأُولَى لِلانْتِقَالِ وَالجَرِّ والحَمْلِ، وَكَانَ الفَرَسَانُ مِنْ رَاكِبِي الخِيُولِ هُمُ القَوَاتُ الأَسَاسِيَّةُ فِي الجِيُوشِ، وَكَانَتْ تُنْتَقَى وَتُخَصَّصُ أَجْمَلُ وَأَقْوَى الخِيُولِ لِلقَادَةِ والأَغْنِيَاءِ

والشخصيات الهامة، كما كان يتم تدريبها على فنون الفروسية ومختلف الألعاب والمهارات، كالتسابق والقفز واجتياز الحواجز والرياضات الترفيهية.. الخ، ويتبارى الناس على اقتناء أغلاها وأكثرها جمالاً، تماماً كما يتهافنون حالياً على شراء السيارات الحديثة الفارهة، وسبحان الخالق العظيم حين قال في كتابه الكريم:

﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾.. وقال سبحانه وتعالى كذلك: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

صدق الله العظيم

فكرت في أقراني من الخيول الشهيرة في التاريخ، الخيول التي تحدثت عنها الأساطير والحكايات، وذكرتهم المراجع والكتب وصنعت لها التماثيل وخلدتهم الصور والمنحوتات، كما سُميت بأسمائهم المدن والأماكن والشوارع.. الخ.

تماماً.. كما خلّدوا الأبطال من البشر في القصص والنامرات التاريخية الحقيقية والخيالية على السواء، ماذا لو كنت أنا:

ماذا لو كنت الحصان المفضل للإسكندر الأكبر - بوتييفالوس - الذي حارب معه كل غزواته وانتصاراته، وأطلق اسمه على إحدى المدن الفارسية القديمة..؟
ماذا لو كنت - رأكوش - حصان الملك/ رستم شاه الفارسي، الذي اعتبره التاريخ أعظم حصان محارب في التاريخ، وخلّدوا اسمه في كتاب الملوك (الشاه نامه)..؟

ماذا لو كنت - مارتجو - حصان الإمبراطور والقائد الفرنسي الشهير/ نابليون بونابارت المفضل، الذي حارب به ومعه معركة - ووترلو الشهيرة..؟

مَاذَا لَوْ كُنْتُ - شِينَج شُو - حِصَانُ الإِمْبَرَاطُورِ الصِّينِيِّ / تَايْ تُسُونْجِ الْمَغْضَلْ،
الَّذِي صُنِعَ لَهُ تَمَثَالًا وَضِعَ عَلَى قَبْرِهِ حَيْثُ تُوْفِيَ عَامَ ٦٣٧ م، وَكُتِبَتْ فِيهِ
الْأَشْعَارُ وَالْمَلَا حِمِ التِّي خَلَدَتْ بَطُولَاتِهِ الْحَرَبِيَّةَ..؟

وَمِنْ بَابِ التَّفَكُّهِ وَالطَّرَافَةِ، مَاذَا لَوْ كُنْتُ - رُوزِينَانْت - حِصَانُ الْفَارِسِ
السَّادَجِ الشَّهِيرِ مُحَارِبِ طَوَاحِينِ الْهَوَاءِ / دُونِ كَيْشُوتْ - رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ حِصَانًا
قَبِيحًا هَزِيلًا وَلَكِنَّهُ أَصْبَحَ حِصَانًا شَهِيرًا..؟

مَاذَا لَوْ كُنْتُ حِصَانُ الْمَلِكِ الْعَادِلِ / صَلَاحِ الدِّينِ الْأَيُّوبِيِّ الَّذِي اشْتَرَكَ مَعَهُ فِي
تَخْلِيصِ وَتَحْرِيرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ أَيْدِي الصَّلِيبِيِّينَ وَتَوْحِيدِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَجَمَعَ
كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَسِيحِيِّينَ وَإِصْرَارَهُمْ عَلَى أَنَّ الْقُدْسَ عَرَبِيَّةٌ وَمَدِينَةُ كُلِّ الْأَدْيَانِ
عَلَى سَوَاءٍ..؟

فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ، جَاءَ الْعُمَالُ كَالْعَادَةِ لِلْقِيَامِ بِالْإِجْرَاءَاتِ الرُّوتِينِيَّةِ
الْيَوْمِيَّةِ، مِثْلَ نِظَافَتِي الشَّخْصِيَّةِ وَنِظَافَةِ الْمَكَانِ، وَإِطْعَامِي وَإِعْدَادِي لِلنَّزْهَةِ
الْيَوْمِيَّةِ الْمُحَلَّةِ الَّتِي أَصْبَحْتُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ أَكْثَرَ سَخْفًا، لِأَسَيِّمًا حِينَ بَدَءُوا فِي
تَدْرِيبِ الْأَطْفَالِ الصَّغَارِ عَلَى امْتِطَائِي وَالِدُورَانِ بِهِمْ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ فِي دَائِرَةِ
مُتَسِعَةٍ، يَقِفُ فِي مَرْكَزِهَا السَّائِسُ مُمَسِّكًا بِلِجَامِ طَوِيلٍ يَنْتَهِي بِغَمِي، وَظَلَلْتُ
هَكَذَا أَدُورُ.. وَأَدُورُ.. وَأَدُورُ عَشْرَاتِ الْمَرَّاتِ عَلَى هَذَا النُّحُو، كَأَنِّي مُرَبُوطٌ فِي
سَاقِيَّةٍ حَتَّى نَفِدَ صَبْرِي وَضَاقَتْ رُوحِي، وَفَجْأَةً.. قَرَرْتُ أَنْ أَقِفَ رَافِضًا التَّحْرُكَ
أَنْفَثُ غَضَبِي نَافِرًا، وَالسَّائِسُ يَصِيحُ بِي مُتَعَجَّبًا مِنْ تَوَقُّفِي الْمُفَاجِئِ طَالِبًا مِنِّي
التَّحْرُكَ وَإِكْمَالَ جَوْلَتِي، وَفَجْأَةً أَيْضًا بَدَأْتُ أَتَحَرَّكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَنْفِ وَالسُّرْعَةِ
مَتَعَمَّدًا.. تَوَقَّفْتُ ثَانِيَةً حَتَّى يُسْرِعَ السَّائِسُ بِالتَّقَاطِطِ الْأَطْفَالِ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِي،
لِذَلِكَ أَسْرَعَ الرَّجُلُ يَشُدُّ اللَّجَامَ الطَّوِيلَ وَيُقْصِرُهُ بِسُرْعَةٍ، ثُمَّ خَلَعَهُ عَنِّي حِينَ
أَصْبَحَ بِجَوَارِي وَأَخَذَ يُحَاوِلُ تَهْدِئَتِي، وَمَا أَنْ اِنْشَغَلَ بِالتَّقَاطِطِ الْأَطْفَالِ وَإِبْعَادِهِمْ

عَنِّي، حَتَّى انْطَلَقْتُ كَالسَّهْمِ جَامِحًا أَجْرِي بِأَقْصَى سُرْعَةٍ فِي طُرُقَاتِ الاسْطَبَلِ مُتَجِّهًا إِلَى بَابِ الْخُرُوجِ الْكَبِيرِ لِلْمَزْرَعَةِ، مُتَخَطِّيًا وَقَافِرًا فَوْقَ كُلِّ مَا يَعُوقُنِي بِقُوَّةٍ، وَمَنْ هَوْلٌ مَا رَأَى الْعَامِلُونَ وَالْمَوْجُودُونَ فِي الْمَكَانِ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ مُجَرَّدَ اعْتِرَاضِي وَالْوُقُوفِ فِي طَرِيقِي، بَلْ وَقَفُوا فِي مَكَانِهِمْ يَضْرِبُونَ كَفًّا بِكَفٍّ، فِي عَجَبٍ مِنَ الْجَنُونِ الْمَفَاجِي لِلْحَصَانِ الْهَادِي اللَّطِيفِ كَمَا عَرَفُوهُ، وَدُونَ أَسْبَابٍ أَوْ مُقَدَّمَاتٍ !!!.

وَلَمْ تَمْضِ عِدَّةٌ دَقَائِقُ حَتَّى وَجَدْتَنِي دُونَ تَفْكِيرٍ أَنْطَلِقُ نَافِرًا إِلَى الْخَلَاءِ وَالْمَزَارِعِ الْمُحِيطَةِ بِالْمَكَانِ، أَخْتَرَقَهَا وَأَنْدِفَعُ بَلَا تَوْقُفٍ وَلَا هَوَادَةٍ إِلَى الْمِنْطَقَةِ الصَّحْرَاوِيَّةِ الْمُجَاوِرَةِ، وَلَمَّا ابْتَعَدْتُ كَثِيرًا رُبَّمَا لِعِدَّةِ كِيلُومِتْرَاتٍ، حَيْثُ لَمْ أَعُدْ أَسْمَعُ سِوَى صَوْتِ أَنْفَاسِي الْمُتَلَحِّقَةِ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ وَالْمُجْهُودِ الْمُضْنِي الَّذِي قُمْتُ بِهِ فَجَاءَ.. أَبْطَأْتُ مِنْ انْدِفَاعِي تَدْرِيجِيًّا ثُمَّ تَوَقَّفْتُ أَسْتَطْلِعُ مَا حَوْلِي، ثُمَّ نَظَرْتُ خَلْفِي لِأَرَى إِنْ كَانَ يُلَاحِظُنِي أَحَدٌ.. يَاهُ.. لَقَدْ ابْتَعَدْتُ كَثِيرًا جَدًّا، وَيَبْدُو أَنَّهُمْ يَنْسُوا مِنْ تَتَبُعِي فَتَرَكَوْنِي مُعْتَقِدِينَ أَنَّنِي سَوْفَ أَعُودُ لَا مَحَالَةَ صَاحِرًا عِنْدَمَا يَبْلُغُ بِي الْجُوعُ وَالْعَطَشُ مَبْلَغَهُ، أَوْ عِنْدَمَا يَرُخِي اللَّيْلُ أَسْتَارَهُ عَلَى هَذِهِ الصَّحَرَاءِ الْمُوحِشَةِ، وَرَبَّمَا تُهَاجِمُنِي الذَّنَابُ وَالْحَيَوَانَاتُ الْمُتَوَحِّشَةُ الْجَائِعَةُ، وَرُبَّمَا.. وَرُبَّمَا..

آه.. كَمْ أَنَا مُتَعَبٌ جَدًّا.. تَوَلَّمُنِي سَاقَايَ الَّتِي لَمْ تَتَعَوَّدْ عَلَى هَذَا الْمُجْهُودِ الْمَفَاجِي، كَمَا أَنَّ الشَّمْسَ بَدَأَتْ تُرْسِلُ أَشْعَتَهَا الْحَامِيَةَ الْمُحْرِقَةَ وَهِيَ فِي وَسْطِ السَّمَاءِ، وَتَطْلَعْتُ حَوْلِي لَعَلِّي أَجِدُ مَكَانًا أَوْ شَجَرَةً أَسْتَظِلُّ بِهَا.. يَا لِلَّهِ.. مَا هَذَا؟.. لَا شَجَرَ وَلَا بَيْوتَ وَلَا جُدْرَانَ، لَا أَرَى سِوَى الْكُتْبَانِ الرَّمْلِيَّةِ الْمُتْهَبَةِ فَقَطْ، أَخَذْتُ أَدْرُسُ الْمَكَانَ جَيِّدًا، وَدُرْتُ أَبْحِثُ عَنِ الظِّلِّ خَلْفَ أَحَدِ الْكُتْبَانِ الرَّمْلِيَّةِ أَوْ خَلْفَ الْكُتْلِ الصَّخْرِيَّةِ.. الْحَمْدُ لِلَّهِ.. هُنَا يُمَكِّنُ أَنْ أُسْتَرِيحَ وَالتَّقِطَ



أَنفَاسِي ، وَمَشَيْتُ مُثْقَلًا تَعَبًا مَرَهَقًا ثُمَّ جَلَسْتُ أَفْكُرُ فِي حَالِي ، وَأَسْتَعْرِضُ مَا
حَدَّثَ وَأَعِدُّ نَفْسِي لِكُلِّ الاحْتِمَالَاتِ الْمُتَوَقَّعَةِ وَغَيْرِ الْمُتَوَقَّعَةِ .

.. يَارَبِّي .. مَاذَا لَوْ ظَلَلْتُ هَكَذَا حَتَّى يَبْلُغَ بِي الْجُوعُ وَالْعَطَشُ أَشَدَّهُ .. ؟
لَا يَبْدُو هُنَا أَى أَمَلٍ فِي الْعَثُورِ عَلَى مَا يَحْفَظُ عَلَيَّ حَيَاتِي .. فَلَا زَرْعَ وَلَا مَاءً ..
وَمَاذَا لَوْ هَاجَمَتَنِي الذَّنَابُ الْجَائِعَةُ ، صَحِيحٌ أَنِّي أَسْرَعُ مِنْهُمْ عَدُوًّا وَأَقْوَى مِنْ
أَيُّهُمْ ، وَلَكِنِّي مِنْهُكَ الْقَوَى جَائِعٌ وَعَطْشَانٌ .. لُطْفُكَ يَا رَبِّ .. أَنَا عَلَى هَذَا الْحَالِ
صَيِّدٌ ثَمِينٌ وَهَالِكٌ بَيْنَهُمْ لَا مُحَالَةَ .

وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا أَفْقَتُ مِنْ أَفْكَارِ الْمُرْعَبَةِ السُّودَاوِيَّةِ هَذِهِ ، وَقَلْتُ لِنَفْسِي :

«لَا .. لَا .. مَا كُلُّ هَذَا الْخَوْفِ وَالْيَأْسِ ، عَلَيَّ أَنْ أَتَشَجَّعَ وَلَا أَكُونَ جَبَانًا إِلَى
هَذَا الْحَدِّ ، هَذَا مَا صَنَعْتُهُ بِيَدِي وَمَا أَوْقَعْتُ نَفْسِي فِيهِ ، وَلَا بَدَّ لِي مِنَ السَّيْطَرَةِ
عَلَى مَشَاعِرِي ، وَتَحْمُلُ نَتِيجَةَ عَمَلِي وَمَا أَقْدَمْتُ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ الرِّضَا بِالنَّعْمَةِ
الَّتِي كُنْتُ فِيهَا ، حَقِيقَةً .. لَا بُدَّ أَنْ أَكُونَ طُمُوحًا وَمَتَعَطِّشًا لِتَغْيِيرِ مَجْرَى
حَيَاتِي .. وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَى هَذَا النُّحُو الْمُهْلِكُ .

آخ .. لَقَدْ عَزَّتْ عَلَيَّ نَفْسِي .. وَأَخَذْتُ أَقَارِنَ بَيْنَ مَا كُنْتُ فِيهِ وَمَا أَنَا عَلَيْهِ
الْآنَ ، فَعَلًا .. لَقَدْ كُنْتُ فِي أَمَانٍ وَرَاحَةٍ وَرَعَايَةٍ ، وَكَانَ مِنَ الْمُمَكِّنِ أَنْ أَحَاوَلَ
التَّغْيِيرَ بِشَكْلٍ أَوْ بآخَرَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِهِذَا الْأَسْلُوبُ الْخَاطِئُ .. إِنِّي أَعْتَرَفُ الْآنَ
بِخَطِيئِي . وَلَكِنْ .. مَا لِهَذِهِ الْهَوَاجِسِ .. مَا حَدَّثَ قَدْ حَدَّثَ فَعَلًا ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ
أَتَمَاسَكَ وَأَكْمِلَ التَّجَرُّبَةَ الَّتِي بَدَأْتُهَا شَيْئًا أَمْ أَبَيْتُ ، وَمَا دُمْتُ لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا
يُغْضِبُ اللَّهَ وَلَمْ أَحِقْ الضَّرْرَ بِأَحَدٍ ، فَإِنَّهُ سَيَجْنِينِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

مَالَتْ الشَّمْسُ وَهَدَاتْ حَرَارَتُهَا قَلِيلًا ، فَانْتَقَلْتُ إِلَى بُقْعَةٍ ظَلِيلَةٍ أُخْرَى مُخْتَبِئًا
بَيْنَ صَخْرَتَيْنِ عَنِ الْعْيُونِ ، وَلَكِنِّي بَدَأْتُ أَحْسُ بِالْعَطَشِ الشَّدِيدِ ، يَا رَبِّي ..
مَا لِرَأْسِي تَدَوُّرٌ هَكَذَا .. بَدَأْتُ تَثْقُلُ جُفُونِي .. إِنْنِي أَتَنَاءَبُ بِشِدَّةٍ .. تَمَدَّدْتُ قَلِيلًا

وَبَدَأَ النَّوْمَ يَشْدُنِي بِقُوَّةٍ، وَشَمَلَنِي صَمْتُ وَسُكُونٍ وَهَدْوٍ غَرِيبٍ وَلَمْ أَعُدْ أَحْسَ بِشَيْءٍ.. وَشَيْئًا.. فَشَيْئًا..

لَا أَدْرِي كَمْ مَضَى عَلَى مِنَ الْوَقْتِ، وَلَكِنْ فَجْأَةً.. وَجَدْتَنِي واقِفًا فِي وَادٍ فَسِيحٍ وَسَطَ تِلَالٍ عَلَى مَشَارِفِ مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ عَامِرَةٍ بِهَا مِنَ الزَّرْعِ وَالشَّجَرِ الْكَثِيرِ، وَعَلَى مَقْرَبَةٍ مِنِّي يُوجَدُ بَثْرُ مَاءٍ وَجَدُولٌ حَوْلَهُ الْكَثِيرُ مِنَ الْجُنُودِ وَالْخِيُولِ يَرْتَوُونَ وَيَغْتَسِلُونَ.. إِيهِ.. مَاذَا جَرَى أَيْنَ أَنَا.. وَفِي أَيِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ أَكُونُ.. يَا سُبْحَانَ اللَّهِ، يَبْدُو أَنَّنِي وَسَطُ جَيْشٍ عَظِيمٍ مِنْ جُيُوشِ الْعُصُورِ الْوَسْطَى، هَاهُمْ يَلْبَسُونَ لِبَاسَ الْحَرْبِ، مُسْتَعِدُّونَ بِالسِّيُوفِ وَالرَّمَاكِ وَالْدُرُوعِ وَالتُّرُوسِ، يَا سَلَام.. هَذِهِ هِيَ قَازِفَاتُ الْمُنْجَنِيْقِ الْمُحْرِقَةِ الَّتِي ابْتَكَرَهَا الْعَرَبُ كَسِلَاحٍ رَادِعٍ اسْتَخْدَمُوهُ فِي حَرْبِهِمْ ضِدَّ الصَّلِيلِيِّينَ.

يَا.. يَبْدُو أَنَّنِي رَجَعْتُ إِلَى الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ الْمِيلَادِي، وَوَجَدْتَنِي بِسَرَجٍ وَبِجَامٍ جَمِيلٍ، أَعْتَقَدُ أَنَّنِي أَصْبَحْتُ مُخَصَّصًا لِأَحَدِ الْقَوَادِ الْعِظَامِ.. يَا لِفَرَحَتِي وَسَعَادَتِي الْغَامِرَةِ، هَذَا مَا أَشْتَقُّ إِلَيْهِ وَأَحِبُّ أَنْ أَكُونَهُ.. وَفَجْأَةً هَرُولَ أَحَدِ الْجُنُودِ تَجَاهِي وَأَمْسَلَ بِي قَائِلًا:

«هَيَّا يَا عَزِيزِي وَحِصَانِ أَمِيرِي الْمَلِكِ الْعَادِلِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ الْأَيُّوبِي، يَبْدُو أَنَّنَا سَنَتَحَرَّكُ الْآنَ كَيْ نُكْمَلَ مَا جَاهَدْنَا وَحَارَبْنَا مِنْ أَجْلِهِ لِسَنَوَاتٍ طَوَالٍ، صَحِيحٌ أَنَّنَا فَقَدْنَا الْكَثِيرِينَ جِدًّا مِنَ الْإِخْوَةِ وَالْأَحْبَاءِ، وَلَكِنَّا احْتَسَبْنَاهُمْ عِنْدَ اللَّهِ شُهَدَاءَ فِي سَبِيلِ نَصْرَةِ دِينِهِ، وَفِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالسَّلَامِ، هَيَّا.. مَوْلَايَ يَطْلُبُكَ لِكَيْ نَدْخُلَ وَنُحَرِّرَ الْقُدْسَ وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، بَعْدَ أَنْ انتَصَرَ رَجَالُنَا عَلَى الصَّلِيلِيِّينَ فِي عَكَا وَحْطَيْنِ، وَلِنَجْعَلَهَا مَدِينَةً لِكُلِّ الْأَدْيَانِ وَنُمَوِّجًا عَرَبِيًّا خَالصًا لِلتَّعَاطُفِ وَالتَّوَادُّ وَالْإِخَاءِ وَالْمَسَاوَةِ بَيْنَ كُلِّ الْبَشَرِ».

يَا لَسَعَادَتِي.. فقد تحقق حلمي، ولا أدري إن كنتُ في الواقع أو في الخيال.. سَارَ بِي الْجُنْدَى حَتَّى أَوْصَلَنِي إِلَى رَجُلٍ مَهِيبِ الطَّلَعَةِ، يَا إِلَهِي.. هل هَذَا صَلاَحُ الدِّينِ..؟ فعلاً.. إِنَّهُ الْقَائِدُ الْعَادِلُ التَّقِيُّ الْعَالِمُ، الْكُلُّ يُحْيِيهِ وَيُكَبِّرُ بِاسْمِ اللَّهِ.. وَيَدْعُو لَهُ بِالنَّصْرِ، اقْتَرَبَ مِنِّي الرَّجُلُ.. وَأَخَذَ يَرَبْتُ عَلَيَّ رَقَبَتِي وَكَتَفِي وَيَمْسَحُ رَأْسِي بِحَنُو شَدِيدٍ.. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنِي أَشْهَدَ تِلْكَ اللَّحَظَاتِ التَّارِيخِيَّةَ الْمَهِيْبَةَ.. وَبَسْرَعَةٍ وَخَفَّةٍ وَرَشَاقَةٍ امْتَطَانِي سَيِّدِي وَقَائِدِي، وَبَدَأَ كَأَنَّهُ يُوجِّهُ لِي وَلِقُودَاهُ وَرَجَالَهُ الْكَلَامَ قَائِلاً:

«هَيَّا يَا جُنْدَ اللَّهِ، حَسَنًا حَسَنًا.. أَنَا وَحِصَانِي الْحَبِيبَ الَّذِي كَانَ خَيْرَ رَفِيقٍ لِي طَوَالَ سَنَوَاتِ الْحَرْبِ هَذِهِ خُضْنَا الْمَعَارِكَ الضَّارِيَةَ سَوِيًّا وَتَلَقَيْنَا آلَافَ الضَّرَبَاتِ وَالطَّعْنَاتِ بِكُلِّ قُوَّةٍ وَعَزْمٍ وَإِصْرَارٍ عَلَى نَصْرَةِ دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، وَقَطَعْنَا مَعَآ آلَافَ الْأَمْيَالِ فِي الصَّحَارَى وَالْوُدْيَانِ وَالْقَفَارِ، وَتَحَمَّلْنَا الْبَرْدَ وَالْحَرَّ الشَّدِيدَيْنِ بِكُلِّ الصَّبْرِ وَالْجَلْدِ، وَبِتَأْيِيدِ مَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ هَا نَحْنُ ذَا نَحْتَفِلُ بِدُخُولِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ، مُنْتَصِرِينَ عَلَى الْفِرْنَجَةِ دَعَاةِ السَّلَامِ الْكَاذِبِ، وَقَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْمُبَارِكِ - الثَّانِي مِنْ أَكْتُوبَرِ عَامِ ١١٨٧م، أَمَّ عَلَيْنَا نَصْرَهُ وَطَرَدَنَا الْغُرَبَاءَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ الْمَقْدَسَةِ الطَّيِّبَةِ، لَقَدْ خَرَجُوا مِنْهَا أَذْلَاءَ بِلَا عُدَّةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، هَيَّا يَا جُنْدَ اللَّهِ.. يَا أَبْنَاءَ الْكِتَانَةِ، آنَ الْأَوَانُ لِلتَّحْرُكِ.. إِلَى الْأَمَامِ.. اللَّهُ أَكْبَرُ.. اللَّهُ أَكْبَرُ».

وَهَكَذَا يَا أَصْدِقَائِي اهْتَزَّتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ بِهَذَا النِّدَاءِ، وَانْتَفَضَ الْمَكَانُ وَتَحَرَّكَ الرُّكْبُ أَتَقَدِّمُهُمُ أَنَا وَأَمِيرِي وَقَائِدِي الْعَظِيمُ بِكُلِّ فَخْرٍ وَسَعَادَةٍ.. حَوْلِي وَخَلْفِي الْآلَافُ مِنْ جُنُودِهِ وَرَجَالِهِ، وَآلَافٌ مِنَ الْمَوَاطِنِينَ الْعَرَبِ مُسْلِمِينَ وَمَسِيحِيِّينَ، يُهْلِلُونَ وَيَهْتَفُونَ وَيُكَبِّرُونَ اللَّهَ، وَكُلُّمَا اقْتَرَبْنَا مِنْ مَدْخِلِ الْمَدِينَةِ عَلَا الْهَتَافُ وَالتَّرْحِيبُ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ الْمَكْبَرَةُ وَالْمَهْلِلَةُ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَهُنَا.. نَزَلَ/ صَلاَحُ الدِّينِ لِيُصَلِّيَ مَعَ رَجَالِهِ وَالْمَوَاطِنِينَ الْمُسْلِمِينَ رَكَعَاتٍ

حمدًا وشكرًا لله ، وبينما كانت تدق أجراسُ الكنائس تعالت ترتيلات وتهليلات
الرهبان ، يحمّدون الله على نصره وعويدة الأمن والأمان بين إخوتهم وأهليهم
وذويهم.

مَا أَنْ خَرَجَ / صَلَاحَ الدِّينِ وَرَفَاقِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ حَتَّى بَدَأَتْ الْجَمَاهِيرُ تَزَارُ
وَتَهْتَفُ ، وَظَلَّ هَذَا الضَّجِيجُ الْفَرَحِ الصَّاخِبِ يعلو أكثر.. فأكثر.. فأكثر، ولكن
مَا هَذَا؟.. يَا رَبِّي.. لَقَدْ بَدَأَتْ تَتَحَوَّلُ الْأَصْوَاتُ الْعَاتِيَةِ الْهَاتِفَةِ فِي أُذُنِي إِلَى
شَيْءٍ آخَرَ، إِنَّهُ زَمْجَرَةٌ وَعَوَاءٌ.. إِنْ بَدَنِي يَرْتَجِفُ.. اللَّهُمَّ لطفك.. وَوَجَدْتَنِي
فَجْأَةً أَنَهَضُ مِنْ نَوْمِي الْعَمِيقِ وَحُلِمِي السَّعِيدِ الْجَمِيلِ الَّذِي لَمْ يَدُم طَوِيلًا.. !!!
وَوَقَفْتُ مَذْعُورًا مُتَنَفِّضًا مِنْ هَوْلٍ مَا وَجَدْتُهُ أَمَامِي.. يَا إِلَهِي.. لَقَدْ نَزَلَتْ الشَّمْسُ
مِنْ كَيْدِ السَّمَاءِ وَبَدَأَتْ طَرِيقَهَا لِلْغُرُوبِ، وَهَآ أَنَا ذَا مُحَاصِرٍ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الذَّنَابِ
الشَّرْسَةِ الْجَائِعَةِ، مُكَشَّرَةٌ عَنْ أَنْيَابِهَا تُزْمَجِرُ وَتَعْوِي.. يَا رَبِّي مَاذَا أَفْعَلُ؟
سُبْحَانَ مُغَيِّرِ الْأَحْوَالِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

دَارَتْ بِي الْأَرْضُ.. وَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُنَجِّنِي، وَتَمَنَيْتُ سَاعَتَهَا أَنْ أَرْجِعَ إِلَى
مَكَانِي الْحَبِيبِ، رَاضِيًا قَانِعًا بِالْأَمَانِ وَالْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ الْهَادِيَةِ الرَّغْدَةِ الَّتِي لَمْ
أَعْرِفْ قِيمَتَهَا إِلَّا الْآنَ، وَدَعَوْتُهُ أَنْ يَهَبِنِي الْعَافِيَةَ وَالْقُوَّةَ حَتَّى أَسْتَطِيعَ الْفِرَارَ
مِنْ هَذِهِ الطُّغْمَةِ الشَّرْسَةِ.

وَفَجْأَةً.. وَبِأَعْلَى مَا بِي مِنْ قُوَّةٍ.. صَهَلْتُ مَزْمَجْرًا مَتَوَعِدًا، وَانْدَفَعْتُ كَالسَّهْمِ
بِكُلِّ مَا بِي مِنْ قُوَّةٍ وَسَطَ الذَّنَابِ، أَرْكُلُهَا بِعَنْفٍ بِقَدَمَيَّ الْأَمَامِيَّتَيْنِ وَأَرْفُسُهُمَ
بِالْخَلْفِيَّتَيْنِ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ أَخَذْتُ أَمْسِكَ بِأَسْنَانِي كُلِّ مَنْ يَقْتَرِبُ مِنِّي
وَأَنْفَضُهُ وَالْقِيَهُ عَلَى الصَّخُورِ مُحَطَّمًا، وَأَنَا فِي شِدَّةِ الْحِرْصِ عَلَى أَلَا يَقْفِزَ أَحَدُهُمْ
فَوْقَ ظَهْرِي، فَتَكُونُ نَهَايَتِي لَوْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْضِمَ عُنْقِي، وَهَكَذَا.. قَتَلْتُ مَا قَتَلْتُ
وَأَصَبْتُ مَا أَصَبْتُ وَفَرَّ الْبَاقُونَ، وَوَجَدْتَنِي أَعْدُو كُلِّ مَا بِي مِنْ سُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ،



رَاكضًا عَائِدًا نَحْوَ مَرْتَعِ صِبَايَ ، بَيْنَمَا عَادَتْ قِلَّةٌ مِنَ الذَّنَابِ تُطَارِدُنِي وَهِيَ تَعُودِي حَتَّى اقْتَرَبْتَ كَثِيرًا مِنَ الْمَزَارِعِ ، وَهُنَا .. هُرَعْتَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْكِلَابِ لِتَجِدْتِي عِنْدَمَا سَمِعْتَ الذَّنَابَ تَعُودِي وَأَسْرَعْتَ لِمَطَارَدَتِهَا ، وَبِحَمْدِ اللَّهِ ابْتَعَدْتَ الذَّنَابُ عَنِّي وَفَرَّتْ هَارِبَةً ، وَوَجَدْتُ نَفْسِي مُحَاطًا بِأَصْدِقَائِي مِنَ الْكِلَابِ الْوَفِيَّةِ ، تَقُودُنِي بِمُودَةٍ إِلَى حَيْثُ الْإِسْطَبْلِ .

مَشَيْتُ بَيْنَهُمْ مِنْهُمْ الْقُوَى جَائِعًا أَكَادُ أَهْلَكَ عَطْشًا .. يَا لِلَّهِ .. مَا أَهْلَى الْإِحْسَاسَ بِالْأَمَانِ بَعْدَ الْخَوْفِ وَالتَّعَبِ ، وَعِنْدَ أَوَّلِ جَدُولِ مَاءٍ أَخَذْتُ ارْتَوَى بِشَغَفٍ شَدِيدٍ ، وَسَرْتُ رُويِدًا رُويِدًا وَأَنَا بِحَقِّ خَجَلٍ مِنْ نَفْسِي ، حَزِينٌ جَدَا حَتَّى اقْتَرَبْتُ مِنَ الْبَابِ الْكَبِيرِ لِلْإِسْطَبْلِ ، وَمَا إِنْ رَأَى الْعَمَالُ وَالْحَرَسُ ، حَتَّى هُرَعُوا نَحْوِي مُهَلِّلِينَ وَعَلَى أَلْسِنَتِهِمْ أَسْئَلَةٌ عَدِيدَةٌ .. مَاذَا فَعَلْتَ .. ؟ أَيْنَ كُنْتَ .. ؟ مَاذَا حَدَّثَ لِي حَتَّى أَبْدُو عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ .. ؟

وَقَفْتُ بَيْنَهُمْ فِي هَدُوءٍ وَنَدَمٍ شَدِيدَيْنِ ، وَهُمْ يَرَبُّثُونَ عَلَيَّ رَقَبَتِي وَيَمَسْحُونَ جِسْمِي بِحَنُوٍّ مِنَ الْعَرَقِ الْبَارِدِ الَّذِي يَتَصَيَّبُ مِنِّي ، وَدُونَ أَنْ يَقُودَنِي أَحَدٌ .. اتَّجَهْتُ جَائِعًا إِلَى حَظِيرَتِي فِي حِينٍ أَخَذَ الْعَمَالُ يُعِدُّونَ طَعَامِي الَّذِي تَنَاوَلْتُهُ بِلَهْفَةٍ وَنَهْمٍ شَدِيدَيْنِ حَتَّى أَسْتَعِيدَ قُوَّتِي وَعَافِيَتِي وَلَمْ يَتَوَانَ صَاحِبِي عَنِ الْحُضُورِ مَسْرِعًا ، وَاحْتَضَنَنِي مُعَاتِبًا مُوجِّهًا اللَّوْمَ لِي وَهُوَ يَرَبْتُ عَلَى رَأْسِي وَيَمَسِّحُهُ بِحَنَانٍ ، وَيُلْقِنُنِي بِقِطْعِ السُّكَّرِ مُحَاوَلًا تَهْدِئَتِي وَإِرْضَائِي قَائِلًا :

«لِمَاذَا تَرَكْتَنَا هَكَذَا يَا عَزِيزِي شِهَابَ .. لَقَدْ خِفْتُ أَنْ يُصِيبَكَ مَكْرُوهٌ ، أَنْتَ حِصَانِي الْمُفْضَلُ ، لَكِنْ مَاذَا جَرَى وَمَاذَا أَغْضَبَكَ مِنَّا .. ؟ لَا عَلَيْكَ .. يَبْدُو أَنَّنَا حَبَسْنَاكَ وَقِيدْنَا حُرَيْتَكَ كَثِيرًا ، وَلَكِنْ قُلْ لِي .. مَا هَذِهِ السَّرْعَةُ الْفَائِقَةُ الَّتِي انْطَلَقْتَ بِهَا ، وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ فِي سَبَاقِ حَقِيقِي لَفُزْتُ بِهِ لَا مَحَالَةَ ، أَنَا أَعْتَذِرُ لَكَ بِشِدَّةٍ لِعَدَمِ تَقْدِيرِي لِكِفَاءَتِكَ يَا صَدِيقِي ، مِنْ الْآنَ سَوْفَ تَكُونُ وَاحِدًا مِنَ الْخِيُولِ

الَّتِي نُدْرِبُهَا وَنُؤَهِّلُهَا لِتُصْبِحَ مِنْ خِيُولِ السَّبَاقِ وَالْفُرُوسِيَّةِ الشَّهِيرَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ،
عَلَى كُلِّ.. الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى سَلَامَتِكَ».

وَهَكَذَا انْتَهَتْ عَلَى خَيْرِ هَذِهِ الْمَغَامَةِ الْمَرِيرَةِ، كَمَا انْتَهَتْ مَتَاعِبِي وَوَسَاوِسِي
النَّفْسِيَّةِ الَّتِي نَغَصْتُ عَلَى حَيَاتِي وَكَادَتْ تَوْرِدُنِي الْهَلَكَ، إِنَّ الطُّمُوحَ وَالْأَمَلَ
فِي حَيَاةٍ أَفْضَلَ مَطْلُوبٌ جَدًّا وَلَكِنْ فِي حُدُودِ الْإِمْكَانِيَّاتِ وَالظُّرُوفِ الْمُتَّاحَةِ،
وَدُونَ أَنْ يَلْقَى الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ مَوَارِدَ التَّهْلُكَةِ، وَدُونَ أَنْ يَخْسِرَ نَفْسَهُ وَكَرَامَتَهُ، وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ وَرِعَايَتَهُ لَكَانَتْ الْعَاقِبَةُ غَيْرَ مَحْمُودَةٍ.

وَالآنَ.. الْآنَ فَقَطْ.. يَا أَعِزَّائِي عَرَفْتُ أَنْ لَا كَرَامَةَ لِأَحَدٍ إِلَّا فِي وَطَنِهِ وَبَيْنَ
أَهْلِهِ وَأَحْبَابِهِ، وَلَيَرْضَى كُلُّ مَنْأٍ بِمَا قَسَمَهُ اللَّهُ لَهُ، عَلَيْنَا فَقَطْ أَنْ نَعْمَلَ بِالْأَسْبَابِ
وَنَجْتَهِدَ وَنَكَافِحَ، وَنَأْمَلَ فِي اللَّهِ خَيْرًا، وَهُوَ نَاصِرُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.



غداً تهتز الأوتار

استيقظ صديقنا / عادل هذا الصُّبَّاح من النوم متأخراً على غير العادة.. آه..
فاليوم يوم الجمعة.. إجازة، قام من سريره مُتَكَاسِلاً مُتَبَاطِئاً، ذهب إلى الحَمَّام
وَعَسَلَ أسنانه جيّداً بحُكْم العادة، ثم تَوَضَّأ وصَلَّى الصُّبْح.. وها هو صوت أمه
تتأدبه لتناول طعام الإفطار مع والده وإخوته كما تعودوا، حمّد الله كثيراً، ثم
حدّث نفسه مُتَسَائِلاً:

الآن ماذا أفعل، الحمد لله أتممتُ عمل واجباتي ومذاكرتي بالأمس كما
تعودتُ، فأنا لا أحبُّ أن أتركَ عملَ اليوم إلى الغد أبداً.. ولا يَبْقَى لى إلا أن
أمارسَ إحدى هواياتي النَّافِعة المُتَعَدِّدة، ولكن يا ترى.. هل أقرأ كتاباً من كنوز
العلم والمعرفة التي تَمْتَلِئُ بها مكتبتنا..؟ هل أتممَ رَسمَ لوحتي التي بدأتها
الأسبوع الماضي..؟ أم أذهبُ إلى حجرة الصَّالُون لأداعب أصابع آلة - الأورج -
التي اشتراها لي أبي بمناسبة نجاحي بتفوق هذا العام، وساعدني كثيراً في
التعرف على هذه الآلة الموسيقية الإلكترونية الحديثة الأوروبية الأصل، فهو
مثل أبيه.. جدّي - رحمة الله عليه، هاوياً محبباً ومتذوقاً جيداً للموسيقى
الجيدة بمختلف نوعياتها، كما أنه يُجيدُ العزف على - العود الذي ورثه عن
أبيه، ولكنه للأسف مُعلق على الحائط في كِيس من القُطيفة بجوار المكتبة
وفوق الأورج، صامتاً منزوياً لم يلمسه أحدٌ منذُ عدّة سنوات فقد انشغل أبي
عنه ولم يعد يلمسه إلا نادراً، خاصة بعد أن أخذ الأورج معظمَ اهتماماتنا
حالياً..

لَمْ يَتَرَدَّدْ عَادِلٌ وَدَخَلَ حُجْرَةَ الصَّالُونَ مُسْرِعًا.. أَقْفَلَ بَابَهُ عَلَيْهِ وَوَقَفَ حَائِرًا
يَفْكُرُ، وَاتَّجَهَ بِنَظَرِهِ مَبَاشِرَةً إِلَى الْأُورْجِ، وَلَكِنْ.. وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى الْعُودِ الْقَابِعِ
عَلَى الْحَائِطِ أَعْلَاهُ، ثُمَّ ارْتَدَّ بَصَرُهُ إِلَى الْأُورْجِ ثَانِيَةً.. ثُمَّ إِلَى الْعُودِ مَرَّةً أُخْرَى..

وَفَجْأَةً.. أَحَسَّ عَادِلٌ بِأَنَّ الْعُودَ يَرْتَوِ إِلَيْهِ صَامِتًا حَزِينًا.. وَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُفْضِيَ
إِلَيْهِ بِشَيْءٍ.. وَبَدَأَ - عُودُ جَدِّهِ شَاحِبًا حَزِينًا تَعْلُوهُ بَعْضُ الْأَتْرَبَةِ، وَكَثِيرٌ مِنْ
غُبَارِ النِّسْيَانِ وَالتَّجَاهُلِ، وَآيَقَنَ أَنَّ الْعُودَ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ لَهُ شَيْئًا مَا.. نَعَمْ.. إِنَّهُ
يُرِيدُ أَنْ يَبْوَحَ إِلَيْهِ هُوَ فَقَطْ دُونَ غَيْرِهِ بِشَيْءٍ فِي نَفْسِهِ، وَيُفْضِيَ إِلَيْهِ بِمَا فِي
نَفْسِهِ مِنْ مَشَاعِرَ وَأَحَاسِيْسَ مَكْبُوتَةٍ تَثْقُلُهُ طَوَالَ هَذِهِ السَّنِينَ..

جَلَسَ عَادِلٌ مُتَرْقِبًا عَلَى أَقْرَبِ كُرْسَى إِلَيْهِ، مُصْغِيًا بِإِمْعَانٍ لِمَا يَوْدُ الْعُودُ أَنْ
يُحَدِّثَهُ بِهِ، وَبَعْدَ لِحَظَاتٍ قَلِيلَةٍ مِنَ الصَّمْتِ، بَادَرَهُ قَائِلًا وَفِي صَوْتِهِ شَيْءٌ مِنْ
الشَّجَنِ:

- يَا عَادِلُ.. أَرْجُو أَنْ تَكُونَ عَادِلًا بِحَقٍّ.. لِمَ إِذَا جَفَوْتُمُونِي هَكَذَا كُلَّ هَذِهِ
السَّنِينَ، لَقَدْ جَفَّتْ أَوْتَارِي وَتَرَهَّلَتْ وَارْتَحَتْ، وَلَمْ يَعِدْ يَعْبا بِي أَحَدٌ مِنْذُ وَفَاةِ
جَدِّكَ؟..

- لَكَ كُلُّ الْحَقِّ فِيمَا تَقُولُ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ وَسَمِعْتُ وَالِدِي يُدَاعِبُكَ أَحْيَانًا،
وَكُنْتُ أَسْتَمْتَعُ جَدًّا بِعَزْفِهِ وَغِنَائِهِ الْجَمِيلِ..

- لَقَدْ تَرَكْنِي وَالِدُكَ وَنَسِيَنِي، رَبِّمَا أَخَذْتُهُ مَشَاغِلُهُ عَنِّي.. وَلَكِنْ اشْتَاقْتُ
أَوْتَارِي وَاشْتَاقْتُ إِلَى الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي السَّعِيدَةِ الَّتِي كَانَ يَحْتَضِنُنِي فِيهَا جَدُّكَ بَيْنَ
زِرَاعِيهِ، وَكَانَتْ لَا تَهْنَأُ لَهُ سَاعَاتُهُ وَلَيَالِيهِ إِلَّا فِي صُحْبَتِي، تُدَاعِبُ أَصَابِعَهُ
وَرِيشتَهُ أَوْتَارِي الرَّقِيقَةِ، فَيَصْدَحُ صَوْتِي رَنَانًا صَافِيًا مِنْ أَعْمَاقِي وَمِنْ بَيْنِ
أُضْغَلِي، وَتَلْتَفِ الْعَائِلَةُ حَوْلَنَا فِي حُبٍّ وَتَوَادٍّ وَسَعَادَةٍ وَهُوَ يُغْنِي وَيَعِزُّفُ أَحْلَى
الْأَلْحَانِ الْعَرَبِيَّةِ.. هَذِهِ قَصِيدَةٌ مِنْ أَغَانِي أُمَّ كُلْثُومٍ.. وَهَذِهِ إِحْدَى رَوَائِعِ

عَبْدُ الْوَهَابِ.. وَذَاكَ لَحْنٌ مِنْ رَوَائِعِ الْإِبْدَاعَاتِ الْمُمْتِعَةِ لِفَنَّانِ الشَّعْبِ سَيِّدِ
دَرْوِيشٍ.. وَنَحْنُ جَمِيعًا سَاعَتَهَا فِي تَوْحِيدِ كَامِلٍ بَيْنِ أَوْتَارِ حَنْجَرَتِهِ، وَبَيْنِ
حَنْجَرَتِي.. آسِفُ أَقْصَدُ رَنْينَ أَوْتَارِي، وَالْجَمِيعُ جَالِسُونَ حَوْلَنَا يَشْتَرِكُونَ
بِالْتَّرِيدِ أَوْ بِالتَّصْفِيقِ الرَّقِيقِ عَلَى الْوَاحِدَةِ.. كَمَا يَقُولُونَ.. يَا.. يَا.. لِهَذِهِ السَّعَادَةِ
الْأَسْرِيَةِ الْغَامِرَةِ، شَيْءٌ تَفْتَقِدُونَهُ الْآنَ لِلْآسِفِ الشَّدِيدِ.. ثُمَّ صَمَتَ الْعُودُ قَلِيلًا
كَمَنْ يَجْتَزُّ ذِكْرِيَّاتِهِ وَأَحْزَانَهُ.. ثُمَّ عَادَ يَقُولُ:

- يَا عَادِلُ.. لِمَاذَا لَا تُعِيدُ صَدَاقَتَنَا مِنْ الْآنَ.. فَقَاطِعُهُ عَادِلٌ بِسُرْعَةٍ قَائِلًا:

- نَحْنُ فِعْلًا أَصْدِقَاءُ.. أَلَسْنَا نَسْكُنُ فِي مَنْزِلٍ بَلٍ فِي شَقَّةٍ وَاحِدَةٍ؟.. وَ..

- نَعَمْ.. هَذَا صَحِيحٌ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ نَقْتَرِبَ مِنْ بَعْضِ أَكْثَرِ.. فَأَكْثَرُ.. هَيَّا
خُذْنِي بَيْنَ يَدَيْكَ وَدَاعِبِ أَوْتَارِي.. رُبَّمَا لَا تُحَسِّنُ الْعَرْفَ وَالتَّحَاوُرَ مَعِيَ فِي
الْبِدَايَةِ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّبْرِ وَالثِّقَةِ سُرْعَانِ مَا تَجِدُ سُهولةً فِي الْعَرْفِ
تَدْرِيجِيًّا، لِأَسِيمَا وَأَنْتَ تَتَمَتَّعُ بِأَذُنٍ مُوسِيقِيَّةٍ وَحَسَّ فَنِّي مُرْهَفٍ كَمَا أَعْرِفُ
عَنْكَ..

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ.. مَدَّ عَادِلٌ بَصَرَهُ إِلَى - الْأُورْجِ الْقَابِعِ أَمَامَهُ عَلَى أَرْجُلِهِ
الْمَعْدِنِيَّةِ، وَكَأَنَّهُ يَسْتَمِعُ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ، صَامِتًا بِإِهْتِمَامٍ كَبِيرٍ وَبِدُونِ تَعْلِيْقٍ،
إِلَى كُلِّ كَلِمَةٍ قَالَهَا الْعُودُ الَّذِي اسْتَطَرَدَ عَتَابَهُ لِعَادِلٍ قَائِلًا:

- هَذَا الزَّمِيلُ الْخَوَاجَةُ الْأَجْنَبِيُّ.. أَقْصَدُ الْخَوَاجَةَ أَوْرْجَ، هَذِهِ الْآلَةُ
الْإِلِكْتُرُونِيَّةُ الْكَهْرِبَايَّةُ الْمُبْهَرَةُ الَّتِي تُصْدِرُ الْأَصْوَاتَ الْمُصْطَنَعَةَ الْمُبْرَمَجَةَ الَّتِي
تُرِيدُهَا فِعْلًا، وَلَكِنَّهَا بِلَا رُوحٍ وَبِلَا إِحْسَاسٍ، قَدْ يَكُونُ صَوْتُهُ أَقْوَى وَأَضْحَمَ مِنْ
صَوْتِي وَلَكِنَّ الصَّوْتَ لَيْسَ بَارْتِفَاعَهُ وَقُوَّتُهُ كَالطَّبْلِ الْأَجُوفِ، وَلَكِنَّ الصَّوْتَ يَمَّا
يَحْمِلُهُ مِنْ أَحَاسِيسَ وَمَعَانِي وَقِيمَ لَهَا أَصَالَتُهَا.. هَذِهِ الْأَصَابِعُ الْبَيْضَاءُ وَالسُّودَاءُ،
يَنْطَلِقُ الصَّوْتُ زَاعِقًا بَعْدَ لَمْسِهَا مِنَ السَّمَاعَاتِ الْمُلْحَقَةِ بِالْآلَةِ مَبَاشَرَةً، سَوَاءً



لَمَسْتُهَا بِرَقَّةٍ أَوْ بِقُوَّةٍ، بَلْ كَمَا تَضْبِطُهَا وَتَبْرِمُجُهَا عَلَى الصَّوْتِ الْمُقْلَدِ الْمَطْلُوبِ
بِوَسْطَةِ مَفَاتِيحٍ أُخْرَى.. وَهُنَا قَاطِعُهُ عَادِلٌ ثَانِيَةٌ:

- وَلَكِنْ يَا صَدِيقِي لَا تَنْسَى الْإِمْكَانِيَّاتِ الْفَنِيَّةِ وَالصَّوْتِيَّةِ الْهَائِلَةِ الَّتِي يَتِمَتُّعُ
بِهَا زَمِيلُنَا - الْأَوْجَحُ فَهُوَ يُدْمِجُ وَيَشْكَلُ وَيُنَوِّعُ الْأَصْوَاتَ وَيُلَوِّنُهَا وَيُصْدِرُهَا
بِمُخْتَلَفِ أَصْوَاتِ الْآلَاتِ وَالْمُؤَثَّرَاتِ الصَّوْتِيَّةِ الْمُخْتَلَفَةِ، إِلَى جَانِبِ تَقْلِيدِ أَصْوَاتِ
الْآلَاتِ الْإِيقَاعِيَّةِ وَغَيْرِهَا..

- فَعَلَّا.. بِاسْتِطَاعَتِهِ تَقْلِيدَ الْأَصْوَاتِ وَالْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ وَالشَّرْقِيَّةِ
وَالْعَرَبِيَّةِ أَيْضًا بِمَا فِيهَا صَوْتِي أَنَا شَخْصِيًّا، وَلَكِنْ شَتَانٌ بَيْنَ الْأَصْلِ وَالصُّورَةِ،
فَأَصْوَاتُهُ زَائِفَةٌ مُصْطَنَعَةٌ (فَالصُّو) كَمَا يَقُولُونَ.. بَلَا قَلْبٍ وَلَا عَقْلٍ وَلَا رُوحٍ وَلَا
وُجْدَانٍ، أَمَّا أَنَا وَأَقْرَانِي مِنَ الْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ الصَّمِيمَةِ، فَنَحْنُ حَمَلَةٌ
تُرَاثٍ وَحَضَارَةٍ أَجْدَادِكِ الْفَرَاعِنَةِ الَّذِينَ ابْتَكَرُوا آلَاتٍ - الْجَنْكُ أَوْ الْهَارِبُ،
وَهِيَ أَوَّلُ الْآلَاتِ الْوَتْرِيَّةِ الَّتِي عَرَفَهَا التَّارِيخُ، كَمَا ابْتَكَرَ الْفَرَاعِنَةُ الْأَعْوَادَ ذَاتِ
الرَّقَبَةِ الطَّوِيلَةِ وَالْقَصِيرَةِ مِنْ أَجْدَادِي، وَنَقَلَهَا عَنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَشُورِيُّونَ ثُمَّ
الْفُرسُ..

كَمْ تَرَدَّدَتْ بَيْنَ جَنَبَاتِ قُصُورٍ وَمَعَابِدِ الْفَرَاعِنَةِ الْأَلْحَانِ الْعَذْبَةِ الرَّقِيقَةِ،
بِكَلِمَاتٍ وَضَعَهَا حُكَمَاؤُهُمْ لِيُعَلِّمُوا أَبْنَاءَهُمُ الْحِكْمَةَ وَحُبَّ الْحَيَاةِ وَالْأَرْضِ وَالنَّيْلِ
وَالْوَطَنِ وَالْأَهْلِ.. أَلَا تَعْلَمُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَصُوغُونَ الْقَوَانِينَ عَلَى شَكْلِ أَغْنِيَّاتٍ
لِيَسْهُلَ تَرْدِيدُهَا وَحِفْظُهَا وَتَدَاوُلُهَا، لِكَيْ يَتَعَلَّمَ مِنْهَا الْجَمِيعُ أَحْكَامَ الْعِلَاقَاتِ
بَيْنَ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ، وَبَيْنَ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَبَيْنَ الشَّعْبِ وَالْحُكَّامِ.. حَتَّى تَظَلَّ
هَذِهِ الْمَأْثُورَاتُ وَالْحِكْمُ وَالْمَعَارِفُ الشَّعْبِيَّةُ مَتَوَارِثَةً بَيْنَ الْأَجْيَالِ، مُعْبَاةً فِي أَغْنِيَةٍ
أَوْ تَرْنِيمَةٍ رَقِيقَةٍ وَلَحْنٍ عَذْبٍ لَا يُنْسَى..

صَمَتَ الْعُودُ قَلِيلًا كَأَنَّهُ يَسْتَرْجِعُ ذِكْرِيَّاتِهِ وَأَفْكَارَهُ.. وَاسْتَطَرَدَّ يَقُولُ..

- أنا ولا فخر.. أعتزُّ جدًّا بأجدادي مِنَ الأعوادِ الَّتِي أَشْبَهُهَا أَنَا تَمَامًا،
وَالَّتِي صَنَعَهَا - مَنْصُورَ زَلْزَلٍ فِي الكُوفَةِ بِالعِرَاقِ فِي بَدَايَةِ القُرْنِ التَّاسِعِ المِيلَادِيِّ
(الثَّانِي الهَجْرِي) وَكَانَ أَشْهَرَ مَنْ عَزَفَ عَلَيْهَا فِي دَوْلَةِ العَبَاسِيِّينَ، وَعَلَى يَدَيْهِ
تَعَلَّمَ / إِسْحَاقَ المَوْصِلِي وابنه إبراهيم اللَّدَّانِ اهْتَزَّتْ لِأَغَانِيهِمَا وَأَشْعَارِهِمَا قُصُورُ
هَارُونَ الرَّشِيدِ وَلِيَالِي بَغْدَادَ، وَكَمْ صَدَحَتْ أَعْوَادُهُمَا وَحَنَّا جِرْهُمَا بِأَجْمَلِ الأَلْحَانِ
وَتَغْنِيَا بِأَرْقِ المَعَانِي والأَشْعَارِ..، .. وَأَكْمَلَ حَدِيثَهُ قَائِلًا:

وَبِالرَّغْمِ أَنَّ العَرَبَ أَخَذُوا العُودَ بِشَكْلِهِ الحَالِي عَنِ الفُرْسِ والرُّومِ، إِلَّا أَنَّهُ
أَصْبَحَ فِي أَيْدِيهِمْ عَرَبِيًّا خَالِصًا، حِينَمَا اسْتَطَاعُوا مُعَالَجَةَ أَلْحَانِ الأَمَمِ
وَالشُّعُوبِ الَّتِي دَخَلَتْ فِي الإِسْلَامِ بِروحٍ عَرَبِيَّةٍ خَالِصَةٍ، وَأَنْ يُعِيدُوا فَنَّ الغِنَاءِ
العَرَبِيِّ المَتَقَّنِ القَدِيمِ بِشَكْلِ جَدِيدٍ قَائِمٍ عَلَى أُسُسٍ فَنِيَّةٍ دَقِيقَةٍ كَانَ العُودُ بِالطَّبْعِ
هُوَ أَدَاتُهَا الأَوَّلَى، وَلَا تَزَالُ أَصُولُهَا وَطَرَائِفُهَا مُمَيِّزَةً حَتَّى الْآنَ..

هَلْ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يُنَازِعِ آلَ المَوْصِلِي فِي فُنُونِ الغِنَاءِ والعَزْفِ، سِوَى الأَمِيرِ
إِبْرَاهِيمَ بْنِ المَهْدِيِّ شَقِيقِ الخَلِيفَةِ / هَارُونَ الرَّشِيدِ، وَمِنْ بَعْدِهِ كَانَ الخَلِيفَةُ
العَبَّاسِيُّ / الوائِقُ، الَّذِي اعْتَبَرُوهُ أَشْهَرَ مَنْ غَنَّى وَلَحَّنَ بَيْنَ جَمِيعِ خُلَفَاءِ بَنِي
أُمَيَّةَ وَبَنِي العَبَّاسِ، وَلَكِنْ وَآسَفَاهُ.. فَقَدْ بَدَأَ التَّدْهُورُ يَعمُ الفُنُونُ جَمِيعَهَا مَعَ
نِهَايَةِ العَصْرِ العَبَّاسِيِّ، خَاصَّةً بَعْدَ سَيِّطَرَةِ المَمَالِكِ والعُثْمَانِيِّينَ عَلَى مِصْرَ
وَالشَّامِ، كَمَا تَدْهُورَتِ العُلُومُ وَالثَّقَافَةُ وَالفِكرُ المُسْتَنِيرُ، وَالحَيَاةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ
وَالاِقْتِصَادِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ لِعِدَّةِ قُرُونٍ، .. وَقَدِيمًا يَا صَدِيقِي قَالُوا..

«إِذَا مَرَضَتِ الدَّوْلَةُ، مَرَضَتْ عَقْلُ كُتَابِهَا وَمُفَكَّرِيهَا وَقُفَّاهِهَا وَتَدْهُورَتِ
فُنُونُهَا»..

أَمَّا فِي الأَنْدَلَسِ، فَقَدْ لَمَعَ اسْمُ - زُرْيَابِ القَادِمِ مِنْ بَغْدَادَ، حَافِظًا مِنْ ثَرَاثِ
المُوسِيقَى والأَلْحَانِ العَرَبِيَّةِ مَا بَلَغَ تَعْدَادُهَا حَوَالَى عَشْرَةِ آلَافٍ لَحْنٍ، نَقَلَهَا إِلَى

الأنْدَلُسُ وصَارَ هُنَاكَ أَشْهَرُ مَنْ يُغَنَّى وَيَعزِفُ عَلَى الْعُودِ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ، بَلْ طَوَّرَهُ بِمَا أَدْخَلَهُ عَلَيْهِ مِنْ تَعْدِيلَاتٍ فِي صِنَاعَةِ أَوْتَارِهِ وَزِيَادَةِ عَدَدِهَا، لِيُصْبِحَ أَجْدَادِي مِنَ الْعِيدَانِ آلَاتٍ مُتَطَوِّرَةٌ كَامِلَةُ الصَّنَاعَةِ، وَهَكَذَا أَصْبَحَ - زُرْيَابُ - أَيْ الْبَلْبُلُ الْمُرْدُ، يَشْدُو فِي لَيَالِي الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ، وَالْهَبَّتِ أَلْحَانُهُ وَمُوشِحَاتُهُ الشَّعْرِيَّةُ الطَّرُوبَةُ الرَّقِيقَةُ مَشَاعِرِ الْعَرَبِ، وَعَطَّرَتْ لَيَالِي أَهْلِ الْجَزِيرَةِ الْأَيْبِيرِيَّةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ عَلَى السَّوَاءِ.

سَكَتَ الْعُودُ قَلِيلًا عَنِ الْحَدِيثِ.. رُبَّمَا مَتَحَسِّرًا عَلَى أَمْجَادِ أَجْدَادِهِ.. ثُمَّ قَالَ:

قَدْ لَا تُصَدِّقُ يَا عَادِلُ يَا صَدِيقِي.. أَنَّ الْعُودَ وَمُوسِيقَاهُ بَهَرَتِ الْأُورُوبِيِّينَ أَيْضًا، وَاسْتَعَارُوهُ وَنَقَلُوهُ إِلَى أُرُوبَا لِيُصْبِحَ بَعْدَ ذَلِكَ سَيِّدَ الْآلَاتِ الْمُوسِيقِيَّةِ فِي أُرُوبَا كُلِّهَا لِعِدَّةِ قُرُونٍ، بَعْدَهَا تَنَاوَلُوهُ بِالتَّعْدِيلِ حَتَّى يَتَوَافَقَ مَعَ طَابَعِ مُوسِيقَاهُمْ الْمُتَعَدِّدَةِ الْأَصْوَاتِ وَالْأَلْحَانِ الَّتِي تَسْمَعُ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ، وَيَتَنَاسَبُ وَمُوسِيقَاهُمْ وَمَقَامَاتِهِمُ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى الدَّرَجَاتِ ذَاتِ أَرْبَاعِ النُّغَمَاتِ، وَهَكَذَا.. خَرَجَتْ مِنْ أَصْلَابِنَا آلَاتٌ أُخْرَى أُرُوبِيَّةٌ الْجِنْسِيَّةِ، وَلَكِنَّهَا عَرَبِيَّةٌ الْأَصْلُ مِثْلُ: الْمَانْدُولِينَ وَالْكِتَارُونِي ذِي الرُّقَبَتَيْنِ ثُمَّ - الْجِيَّتَارُ..

هَلْ تَعْلَمُ يَا عَزِيزِي.. أَنَّ - أَبَا نَصْرَ الْفَارَابِيَّ، ابْنَ سَيْنَا، ابْنَ الْهَيْثَمِ، الْكِنْدِيَّ، صَفِيَّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ وَغَيْرِهِمْ..، وَهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ رُؤَادَ فِيهِ اللُّغَةُ وَالشَّرِيعَةُ وَالطَّبُّ وَالْكِيمْيَاءُ وَالْفَلَسَفَةُ وَالْفَلَكُ.. الخ، كَانُوا أَيْضًا مِنْ أَعْظَمِ الْعُلَمَاءِ فِي فُنُونِ وَعُلُومِ الْمُسِيقَى وَنَظَرِيَّاتِهَا الْعِلْمِيَّةِ وَالْفِيزِيَاثِيَّةِ، وَعَلَى أَسُسِ نَظَرِيَّاتِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ قَامَتِ الْحَضَارَةُ الْمُسِيقِيَّةُ الْأُورُوبِيَّةُ، كَمَا وَضَعَ الْعُلَمَاءُ الْعَرَبُ مَبَادِئَ التَّدْوِينِ الْمُسِيقِيِّ الَّذِي طَوَّرَتْهُ أُرُوبَا فِي الْعُصُورِ الْوُسْطَى، إِلَى جَانِبِ قَوَاعِدِ وَنَظَرِيَّاتِ التَّلْحِينِ وَالتَّأْلِيفِ الْمُسِيقِيِّ وَأَسُسِ التَّوَافُقِ وَالتَّنَافُرِ

بَيْنَ الْأَصْوَاتِ (الْهَارْمُونِيِّ)، وَدَرَسُوا الْمَقَامَاتِ وَالسَّلَامَ وَالدرجاتِ الموسيقية وتصنيفها، وأيضاً عدّلوا وطوّروا الآلات الموسيقية، وابتكروا آلاتٍ أخرى لم تكن معروفةً بعد مثلاً: القانون وغيره. وما زالت كتبهم ومراجعهم تُدرسُ في جميع الأكاديميات الفنية في أوروبا والعالم حتى أيامنا هذه.

يَا عَزِيزِي.. لَا أَقُولُ لَكَ ذَلِكَ غُرُورًا وَلَا كِبْرِيَاءَ، وَلَا أُرِيدُ مِنْكَ أَنْ تَتْرَكَ الْأُورْجَ وتعودَ لِي فَقَطْ.. كَلَّا وَاللَّهِ.. فَلَسْتُ أَنَانِيَا، وَلَكِنِّي فَقَطْ أَذْلكَ عَلَى مَاضِي وَحَضَارَةِ وَثَرَاتِ أَجْدَادِكَ، وَأُنِيرُ لَكَ الطَّرِيقَ لِتَتَعَرَّفَ عَلَى هَوَيْتِكَ الْمَصْرِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ الْعَرِيقَةِ.

لَكِنْ.. لَا بِأَسَ.. إِذَا احْتَاجْتَ أَوْهَفْتَ نَفْسَكَ لِشَيْءٍ مِنَ اللَّهْوِ وَالْإِثَارَةِ وَالْمُتْعَةِ الْوَقْتِيَّةِ.. فَلَا أُورْجُ كَفِيلَ بِذَلِكَ،.. وَلَكِنْ أَرْجُو أَلَّا تُؤْذِنِي وَتُؤْذِيَ مَنْ مَعَنَا فِي الْبَيْتِ أَوْ تُقْلِقَ الْجِيرَانَ بِالضَّجِيجِ وَالصَّوْتِ الْمُرْتَفِعِ، قَدْ يَكُونُ بَيْنَهُمُ الْمَرِيضُ أَوْ الْمُتَعَبُ وَمَنْ يَحْتَاجُ لِلرَّاحَةِ وَيَبْحَثُ عَنِ الْهُدُوءِ لِلْقِرَاءَةِ أَوْ مُذَاكِرَةِ دُرُوسِهِ،.. يَا عَادِلَ.. لَيْسَتْ مُتَعَتْنَا مَدْعَاةٌ لِمُضَايَقَةٍ وَإِقْلَالِ رَاحَةِ الْآخَرِينَ، أَمَّا أَنَا.. فَطَبْعًا يُمْكِنُكَ أَنْ تَأْنَسَ لِي بِرَقَّةٍ، وَتَسْتَطِيعَ أَنْ تَسْتَمِيعَ وَأَسْتَمِيعَ مَعَكَ بِاللَّحْنِ الْحُلُوِّ الْعَذْبِ، وَالْأَغْنِيَةِ الرَّقِيقَةِ ذَاتِ الْمَعَانِي الرَّفِيعَةِ السَّامِيَةِ.

.. تَلَفْتُ الْعُودَ حَوْلَهُ بَرْهَةً وَنَظَرَ إِلَى - الْأُورْجِ الْقَابِعِ أَسْفَلَهُ وَقَالَ ..

- مَاذَا أَقُولُ لَكَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، إِنْنِي أَحِسُّ أَنَّكَ بَدَأْتَ تَفْهَمُنِي فِعْلًا، وَلَكِنْ اعْذُرْنِي.. هَذَا عِتَابٌ رَقِيقٌ بَيْنَ صَدِيقَيْنِ وَجَارَيْنِ، فَأَنَا كَمَا تَعْلَمُ.. مَوْجُودٌ هُنَا فِي هَذَا الْبَيْتِ قَبْلَ أَنْ تُولَدَ وَيُولَدَ أَبُوكَ مِنْ قَبْلِكَ أَيْضًا،.. وَمِنْ حَقِّي عَلَيْكَ أَنْ تَرْعَانِي وَتَعْتَنِي بِي، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تُعِيدَ لِي صَوْتِي وَرَنَاتِ أَوْتَارِي، أَنَا أَذْكُرُكَ بِالْمَاضِي..، أَمَّا الْحَاضِرُ وَالْمُسْتَقْبَلُ فَهُوَ لَكَ، وَسَأَكُونُ سَعِيدًا جَدًّا إِذَا مَا تَغَنَيْتَنَا مَعًا بِأَحْلَى مَا عِنْدَكُمْ الْآنَ مِنْ مُوسِيقَى وَالْحَانَ، فَأَنَا أَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَا زَالَتْ هُنَاكَ



آمالُ عَرِيضَةٍ فِي الإِصْلَاحِ، وَهُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الْمُوسِيقِيِّينَ مِمَّنْ لَمْ يَفْقَدُوا هَوِيَّتَهُمُ
الْفَنِّيَّةَ تَمَامًا، وَمَا زَالَتْ أَلْحَانُهُمْ تَحْمِلُ عِبْقَ الْمَاضِي مَعَ شَيْءٍ مِنَ الْحَدَاثَةِ
وَالْمَعَاصِرَةِ..

هَذِهِ مَعَاهِدَةٌ نُوَقِّعُهَا سَوِيًّا، نَسْتَطِيعُ بِهَا أَنْ نَتَجَاوَزَ الْعُقَبَاتِ وَنُصَارِعَ الزَّمَنَ
وَالظُرُوفَ، لِنَكْتُبَ تَارِيخَنَا بِأَيْدِينَا وَلَا نَدْعَ أَحَدًا يَمْلِكُهُ عَلَيْنَا، أَهْ يَعْمِي أَبْصَارُنَا
وَيَمْلَأُ أَسْمَاعَنَا وَأَفِيدَتَنَا بِالْإِبْتِكَارَاتِ وَالْإِخْتِرَاعَاتِ الْحَدِيثَةِ وَالْمُبْهَرَةِ الَّتِي كَثِيرًا
مَا نَنْقَادُ إِلَيْهَا بِسَدَاجَةٍ، وَهُوَ مَا سَيُبْعِدُنَا كَثِيرًا عَنْ جُذُورِنَا وَأَصُولِنَا وَعَقَائِدُنَا
وَشَرَائِعُنَا..

تَأَثَّرَ عَادِلٌ كَثِيرًا، وَسَرَتْ فِي جَسَدِهِ رَعِشَةٌ مَلَأَتْهُ زَهْوًا، وَقَالَ لِلْعُودِ..
- عَظِيمٌ جِدًا.. وَاللَّهِ لَكَ كُلُّ الْحَقِّ فِيمَا ذَكَرْتَهُ.. هَيَّا زِدْنِي وَاشْرَحْ لِي..، مَاذَا
عَنِ الْفَتْرَةِ الذَّهَبِيَّةِ لِلْمُوسِيقَى الْمَعَاصِرَةِ..؟ فَرَدَّ عَلَيْهِ الْعُودُ مُسْتَرَسَلًا..

- أَتُرِيدُ أَنْ أُحْكِيَ لَكَ عَنْ أَسَاتِذَةِ عَوْدَةِ الرُّوحِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ لِلْمُوسِيقَى
وَالْغِنَاءِ، هَؤُلَاءِ الْعَبَاقِرَةُ الَّذِينَ مَلَأُوا حَيَاتِنَا سَعَادَةً وَحُبًّا فِي اللَّهِ وَالْوَطَنِ وَالْأَهْلِ
وَالْأَحْبَاءِ، وَعَلَّمُونَا الْكَلِمَ الطَّيِّبَ وَاللَّحْنَ الْعَذْبَ الرَّقِيقَ الْمُهْدَّبَ لِلْمَشَاعِرِ
وَالْوُجْدَانِ..، هَلْ أَذْكُرُ لَكَ مَا كَانَ قَبْلَ أَنْ تَعُودَ ثَانِيَةً فِي أَيَّامِكُمْ هَذِهِ
الْهَجْمَةُ الْمُسَيِّفَةُ، هَجْمَةُ الْغَرْبَانِ وَالْجَهْلَةِ مِنْ فُنَّانِي الْمَلَاهِي اللَّيْلِيَّةِ وَشَرَائِطِ
الْكَاسِيَتِ وَمَا يُسَمُّونَهُ - الْفِيدْيُو كَلِيبَ، وَمَنْ يَرْتَزِقُونَ وَيَثْرُونَ وَيَتَاجَرُونَ فِي
إِفْسَادِ أَذْوَاقِ جِيلٍ كَامِلٍ، بِدَايَةٍ مِنْ - الطُّشْتِ قَلَلِي.. إِلَى كَمْنَةِ..، سَامَحْهُمْ
اللَّهُ..

أَيْنَ أَلْحَانُ وَأَدْوَارُ / مُحَمَّدٌ عُثْمَانُ وَعَبْدُ الْحَامُولِ وَسَلَامَةُ حَجَّازِي وَعَبْدُ الْحَيِّ
حِلْمِي وَأَبِي الْعَلَا مُحَمَّدٌ.. وَغَيْرُهُمْ كَثِيرُونَ، لَقَدْ أَعَادَ جَمِيعُهُمْ أَمْجَادَ فَنِّ الْغِنَاءِ
الْعَرَبِيِّ الرَّفِيعِ لَحْنًا.. وَشِعْرًا وَنَثْرًا، خَاصَّةً بَعْدَ أَنْ طَغَتْ أَسَالِيبُ الْغِنَاءِ الْغَجَرِي

والعثماني والفارسي الركيك وعبثت بحناجر المطربين والمطربات العرب
والمصريين لعدة قرون،.. أين القصائد والموشحات والطقايق والأغنيات التي
تعلم منها الشعب الأمي أصول وقواعد نطق اللغة الفصحى، وتداولوها لتصبح
ضمن مفرداتهم اللغوية اليومية، أي أن الأغنية واللحن كانا معاً المدرسة
والجامعة الشعبية المجانية للثقافة واللغة في مصر، منذ القرن التاسع عشر
حتى الثلث الأخير من القرن العشرين، ولكن.. الآن يا حسرتاه.. يتعلم الأطفال
كل يوم محصولاً زائراً من الكلمات البديئة والتعبيرات المسفة، يبتكرها لهم
الجهلة والسوقة والمساطيل في سوق الأغنية.. ولا حول ولا قوة إلا بالله..

أكثر من ذلك.. هل أذكرك بفنان الشعب / سيد درويش - الذي صاغ اللحن
المصري بروح أبناء الشعب ونقله إلى كل مكان، وأضاف ورفاقه اللمسة التعبيرية
والوجدانية والوطنية في الغناء والموسيقى المصرية، هؤلاء الذين حركوا الوجدان
والشعور الوطني للشعب بكل طوائفه، لينقل الأغنية واللحن من الصالات
والمسارح إلى الشوارع والبيوت..

أين فرسان الكلمة المغناة من الشعراء والزجالين والكتاب، بداية من: أحمد
شوقي إلى بيرم التونسي، أحمد رامى، مرسى جميل عزيز.. وغيرهم، حتى
محمد حمزة، عبد الوهاب محمد، الأبنودي..

أين زعماء الجيل الثالث للموسيقى والغناء المصري مثل: زكريا أحمد، محمد
عبد الوهاب، أم كلثوم، ليلى مراد، محمد القصبجي، رياض السنباطي حتى
عبد الحليم حافظ، محمد الموجي، محمود الشريف وسيد مكاوي.. أين فائزة
أحمد، نجاة الصغيرة، سعاد محمد، شادية، كارم محمود وغيرهم كثيرون..

لقد أدوا كل ألوان وفنون الغناء العربي من الموشح إلى الدور والقصيدة والموال
والأغنية والطقطوقة والنشيد الوطني، حتى الذين تخصصوا في فن المونولوج
الخفيف، كانوا بحق مغنين بمعنى الكلمة، أبهجوا الناس وأسعدوهم طرباً ونغماً
ونقداً اجتماعياً هادفاً..

١٩٩٩/٧٩١٧	رقم الإيداع
ISBN 977-02-5845-8	الترقيم الدولي

٧/٩٩/١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)